

63

کتابی



# ماریا ایفانو فئا

( اینه الضابط )

الکسندر بوشکین

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)



موسی راد



# ماريا ايفانوفنا

( ابنة الضابط )

الكسندر بوشكين



**Looloo**

[www.dvel4rabi.com](http://www.dvel4rabi.com)

## رقيب في الحرس

« حافظ على شرفك منذ أيام الصبا »

قول روسي مأثور

كان « أندريه بتروفيتش جرينيف » يعمل إبان شبابه

في الجيش ، تحت قيادة ( كونت مونينغ ) ، وأحيل إلى المعاشي برتبة - ضابط أول ، أركان حرب - سنة ألف وسبع مائة و . . وعاش - منذ ذلك الحين - في أرضه بسيمبيرسك ، حيث تزوج بـ « أدفوتيا فاسيليفنا اي . . » ، وهي ابنة سيد فقير من سكان المنطقة . وأنجب الزوجان عشرة أولاد ، إلا أن جميع أخوتهم ماتوا في سن مبكرة .

وكنفت ما أزال في رحم أمي ، حين سجلت برتبة رقيب في فوج سيمينوف ، بمساعي الضابط الأمير « ب . . » ، أحد أقربائنا . ولو قد ولدت أمي بنتا بدلا مني على خلاف كل ما كان ينتظر ، لأعلن أبي للمراجع المختصة موت الرقيب « الذي لم يستجب للدعوة » ، ولوقف الأمر عند هذا الحد . غير أنني ولدت صبيا . « ومنحت أجازة » إلى أن أنهى دراستي .

وكنّا في ذلك الوقت نربي تربية محالة كل الاختلاف عن

تربية اليوم . عهد بى - منذ الخامسة من عمرى - إلى الخادم « سافيلتشى » ، الذى استحق لسلوكه الممتاز لقب « مربى » السيد الصغير . وبإشرافه تعلمت القراءة فى الثانية عشرة من عمرى ، وأصبحت قادراً على إيداء رأى وجيه فى مزايا .. كلب سلوقي . وفى تلك الآونة ، استأجر لى أبى معلماً فرنسياً هو ميسو « بوبريه » .. طلبه من موسكو ، كما طلب - فى الوقت نفسه - مؤونة سنوية من الخمر وزيت الزيتون . واستاء « سافيلتشى » استياء شديداً من وصول هذا المربى الجديد . فكان يدمم بينه وبين نفسه ، قائلاً : « أحرص أن الولد قد أحسن تظليله وتلييسه وإطعامه ، فما الداعى إلى إتفاق المال فى استئجار ميسو فرنسى .. كان ليس بيننا أكفاء ! »

وكان « بوبريه » فى بلاده حلاقاً ، ثم عمل فى بروسيا جندياً ، وجاء أخيراً إلى روسيا ليكون « معلماً » ، دون أن يفهم معنى هذه الكلمة على وجه الدقة . وأقنعه الكبرى ميله إلى الجنس اللطيف ، وكثيراً ما اتفق أن تقولت عواطفه بضربات ، فإذ هو يخلل يتوجع أياماً بكاملها . ثم أنه لم يكن « عدو الكأسى » أبداً ، كما كان يقول هو نفسه .. ومعنى هذا فى الروسية الفحة أنه يسرف فى الشراب . ولكن لما كان النبيذ لا يقدم فى بيتنا إلا فى وجبة الغداء ، وكان لا يقدم للشخص إلا قدح واحد ، وكان المربى - فوق ذلك - ليس له منه فى العادة نصيب ، فإن صاحبى « بوبريه » سرعان ما

تعود الأثرية الروسية ، حتى أصبح يفضلها على خمير بلاده .. لأنه يجدها مهضة أكثر من خمير بلاده !

وقد سادت بيننا روح التفاهم فوراً ، وبرغم أن بنود الاتفاق نصت على أن عليه أن يعطينى « الفرنسية والألمانية وجميع أنواع العلوم » ، فقد أثار أن يتعلم منى بعض مبادئ الروسية ، ثم شغل كل منا بعد ذلك بشئونه الخاصة .. كتبنا نعيش صديقين . وما تمنيت أبداً أن يكون لى مرب غيرى . ولكن ، سرعان ما فرق بيننا القدر . وإليك كيف تم ذلك :

فى ذات يوم قررت الغسالة « بالاشسكا » - وهى بنت سمينة ذات وجه مجذور - وقررت معها راعية البقر العوراء « أكولكا » ، أن ترقيا على قدمى أمى ، وتعتزنا لهما بان « المسيو » قد غرر بهما واستغل سذاجتهما ، فأوقعهما فى الائم .. قالتا ذلك وهما تسكبان دموعاً غزيرة . وكانت أمى لا تحب مثل هذا المزاح ، فنظمت النبا إلى أبى .. وأبى امرئ لا يبطئ ولا يتكلم فى مثل هذه الحالات ، فأمر بإحضار الفرنسى السافل على الفور . فلما قيل له إن « المسيو » مشغول بإعطائى درساً ، جاء إلى غرفتى بنفسه ..

وكان « بوبريه » فى تلك اللحظة متكوماً على سريره يقط فى نوم عميق .. وكنت أنا مشغولاً بامر هام . وهنا يجب أن أذكر أنهم كانوا قد أحضروا لى من موسكو خريطة حفرافية ، وكانت هذه الخريطة معلقة على الحائط فوق أن نبيذ فى شئ البقة . وكان قد انقضى زمن طويل على أن نبيذ على الحائط

وجوده ورقها ، فقررت ان اصنع منها « طيارة » ، وانتهزت فرصة نوم بوبريه فشرعت في العمل ، وقد دخل ابي لحظسة كنت منبهكا في تركيز ذنب الطائرة على راس الرجاء الصالح ! فلما رايتي منهمكا إلى هذا الحد في « تمارين جغرافية ! » ، شد اذني ، ثم التفت إلى بوبريه بقرعه ويؤنيه . وحاول بوبريه ان ينهض — وقد ارتبك ارتباكا شديدا — إلا انه لم يستطع النهوض .. لقد كان الفرنسي التعيس كاليت من شدة السكر ، فشد ابي من تلايينه ، وانزعه من سريره ، ورماه على باب الغرفة ، واطرده من البيت في ذلك اليوم نفسه .

وسر « سافيليتش » من ذلك ايما سرور ! .. وكان هذا الحادث خاتمة « ثقافتى » ، نعيش بعدئذ طفلا مدلا ، اصطاد الحمام واستقرس في انواع اللعب مع ابناء خدمنا ، حتى بلغت نهاية السادسة عشرة من عمري ، فغلرا على حياتي تغير هام .

\*\*\*

في ذات يوم من ايام الخريف ، كانت امي في الصالون تصنع معقود العسل .. وكنت انا اناظ للزغوة الفائرة على سطح الوعاء .. وكان ابي واقفا إلى النافذة يتصفح « جريدة البلاط » ، وهى نشرة سنوية تصل إليه بانتظام .. وكان ابي يهتم بهذا الكتاب اهتماما عظيما ، فكانت قراءته ذات قدرة عجيبة على إثارة ، وكانت امي — وقد حفظت عادات زوجها عن ظهير قلب — تحاول ان تخفى هذا الكتاب النحوس في ابعد مكان ، فكان يظل اشهرا برمتها لا يقع تحت بصر ابي .. حتى اذا عثر به عرضا ، ظل يقلبه ساعات طويلة .

كان ابي يقرأ — إذن — هذا الكتاب في ذلك اليوم ، فكان يهز كتفيه من حين إلى حين ، وهو يردد بصوت منخفض : « ايصبح هو لواء ، وقد كان في كتيبتى رقبيا ! ! » . واخيرا رمى الكتاب على الديوان ، وغرق في تأمل لا يبشر بخير .. وفجأة ، التفت نحو امي يسألها : « اعدوتيا غاسيلينا ، ما عمر بتروشا ! » .

— دخل في السابعة عشرة . لقد ولد سنة عقدت العمرة ناستاسيا جراسيموفنا عينا ، وسنة ..

— حسنا .. ان اوان التحاقه بالخدمة العسكرية . كفاه تسكعا بالقرب من غرف الخادما ، وتسلقا إلى اعشاش الحمام .

فلما نصورت امي انها ستفصل عني في القريب ، انفعلت انفعالا شديدا ، حتى لقد سقطت المعلقة من يدها في القدر ، وسالت على حديها دموع غزيرة . اما انا ، فلم اجد ما امير به عن حماستي . لقد كانت فكرة الخدمة العسكرية متحدة في ذهني بفكرة الحرية وملذات العاصبة . وتصورت نفسي منذ الآن ضابطا في الحرس ، وكان ذلك في نظري غاية ما بطمع فيه إنسان من سعادة .

وابى امرؤ لا يحب ان يبذل ما يعزم عليه من امر ، ولا ان يرجى التنفيذ . فما هي إلا لحظات حتى حدد يوم سفرى . وقال لى — في اليوم التالي — اننى سأحمل رسالة إلى رئيسى ، وطلب ان ياتوه بقلم وورقة . فقلت « لا تقس »

ايضا ، يا أندريه بتروفتش ، أن تبلغ الأمير « ب . ب » تحيتي ،  
وقل له إنني آمل أن لا يرضن على بتروشا بعطفه وفضله .  
فاجاب ابي مقطبا حاجبيه : « ولكن علام اكتب للأمير ب . ب » ؟  
— ألم تقل أنك ستكتب إلى رئيس بتروشا ؟  
— نعم

— اليس الأمير « ب . ب » رئيسه ؟ .. اليس بتروشا  
مسجلا في فوج سيمينوف ؟

— مسجل ؟ .. وما قيمة التسجيل ؟ .. إن بتروشا لن  
يذهب إلى سان بطرسبرج . وما عسى أن يتعلم هناك ؟ ..  
يبدد ماله ويرتكب الموبقات ؟ .. كلا ، يجب أن يفخره في  
الجيش . يجب أن يتعلم الخدمة العسكرية .. يجب أن  
يعرف ما هو البارود ، وأن يصبح جنديا باسلا ، لا شابا  
طائشا ! .. مسجل في الحرس ؟ .. أين جواز سفره ؟ ..  
ألقيني بجواز سفره !

وجاءت أمي بجواز السفر — وكانت قد أودعته صندوقها  
مع القميص الذي ارتديه يوم تعميدي — فهدته إلى أبي  
ببد مرتجلة .. وقرأ أبي جواز السفر بانتباه ، ثم وضعه  
على المنضدة أمامه ، وبدأ كتابة رسالته . وتيقظ في نفسي  
حب الاستطلاع : ترى أين يرسلونني إذا لم يرسلوني إلى  
سان بطرسبرج ؟ ولم أحول بصرى عن حركة القلم ، وكان  
القلم لا يتحرك إلا ببطء ..

وأخيرا غرغ أبي من الكتابة ، فوضع الرسالة وجواز  
السفر كليهما في ظرف واحد ، وختم الظرف ، ثم نزع

نظاريته ودعاني إلى جانبه ، قائلا : « خذ ! .. هذه رسالة إلى  
أندريه كارلوفتشي ، صديقي القديم ورفيقي في السلاح .  
ستمضي إلى « أورنبورج » ، وتكون تحت إمرته » .

هكذا خابت آمالي البراقة ! .. لن أعيش إذن حياة مريحة  
في سان بطرسبرج ، بل حياة كابية مملّة في أعماق ركن بعيد  
من الريف . وبدت لي حياتي المقبلة — التي كنت أحلم بها  
منذ دقيقة واحدة في حماسة عظيمة — كأنها فاجعة حقيقية  
على حين غرة .. إلا أن المناقشة لا محل لها مع أبي !

وفي الصباح من الغداة ، كانت عربة الرحيل تقف عند باب  
البيت ، وقد وضعت فيها حقيتي ، ووضع فيها صندوق  
يضم أدوات الشاي ، وصدر محشوة بأقراص الفطائر ..  
وكان ذلك آخر يادرة من بوادر حنان الأم . وباركتني أبواي  
.. وقال أبي : « في رعاية الله يا بترو ، وآمل أن تنفذ في خدمتك  
أولئك الذين ستقسم لهم يمين الأخلاص .. أطع رؤسائك ،  
ولكن لا تستجد عطفهم .. لا تكن متهورا ، ولكن لا تتخلف عن  
القيام بالواجب ، وتذكر المثل القائل : على المرء أن يحتفظ  
بعفته وبشره منذ أيام صباه ! » .

وبكت أمي بكاء سخيا ، وتوسلت إلى أن أعفني بصحتي ،  
وناشدت ساقيليتش أن يسهر على ولدها .. والبسوني  
فروة من جلد الأرنب . ثم البسوني فوقها معطفا من فراء  
الثعلب . وصعدت عربتي يتبعني ساقيليتش .. وتركت  
المنزل الأبوي وأنا أدرف الدموع \* \*



وصلت (سيميرسك) في الليلة نفسها .. وكان علينا أن نمكث فيها نهرا بكامله ، نشترى ما نحن في حاجة إليه من أشياء كثيرة . فزلنا في أحد الفنادق ، وعهدت إلى سافيليتش بشراء ما ينبغي شراؤه . فمضى - منذ الصباح - ينتقل بين « الدكاكين » . وسئمت النظر من خلال النافذة - وكانت تشرف على درب موحد - فأخذت أطوف بين الغرف . فلما وصلت إلى غرفة « البليارد » ، رأيت رجلا في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ذا شارب طويل أسود ، وقد ارتدى ثوب البيت ، وفي يده غليون ، ويده عصا « البليارد » . وكان الرجل يلعب « البليارد » مع العامل المولج (١) بالعد ، فكان إذا غلبه العامل أمر له بقدح من « الفودكا » ، وإذا غلب هو العامل حمله على أن يمر تحت طاولة « البليارد » وهو يحبو على أربع ! .. ووقفت أشاهد اللعب .. كانت نزعات العامل تحت الطاولة على أربع قوائم تكثر شيئا بعد شيء ، إلى أن ظل - في آخر مرة - تحت طاولة « البليارد » ، فصاح خصمه كأنها هو يرويه . ثم اقترح على أن اللعب معه ، فرفضت ذاكرة أنني أجهل هذه اللعبة ، فبدأ له ذلك عجيبا « والتقى على نظرة لمحت فيها الأسف !

وانعقدت بيننا - مع ذلك - أواصر التعارف . فعلمت أنه يدعى « ايفان ايفانوفتش زورين » ، وأنه كان ضابطا في الفرسان ، وقد أتى إلى (سيميرسك) لحضور حفلة تحنيد ،

(١) الواضح من السياق أن المترجم قصد « الموكل » .

وأنه نزيل هذا الفندق نفسه . ثم دعاني إلى تناول العشاء معه بلا كلفة ، على الطريقة العسكرية ، فقبلت الدعوة شاكرا . وجلسنا إلى المائدة ، فشرب كثيرا ، وحملني على الإكثار « ليعودني الخدمة » ، على حد تعبيره .. وقص على - أثناء ذلك - من النوادر العسكرية ما ضحكته له حتى نفرت من عيني الدموع . ونهضنا عن المائدة على أحسن ما يكون صديقان .

وسرعان ما تبرع بتعليمي لعبة « البليارد » . قائلا : « إننا - معشر العسكريين - نحتاج حقا إلى هذا .. مثلا ، حين يكون أحدها في الريف ، فيصل إلى قرية صغيرة ، ماذا عساه يفعل ؟ .. إننا لا نستطيع أن ننفق كل وقتنا في اصطهاد اليهود ، ولابد أن يمضي أحدها إلى الفندق - شاء أم أبى - فليعلم بعض الوقت .. ولابد إذن من معرفة اللعب ! » .

وبدا لي هذا الكلام منطقيًا . وانصرفت إلى الانشغال بـ « تعليمي » في اهتمام ، فكان يشجعني بصوت مرتفع . وظهر عليه أنه في دهشة عظيمة من سرعتي في التعلم . واقترح على - بعد عدد من الدروس - أن نلعب متراهنين على بعض الدراهم ، مهما تكن قليلة .. لا بغية الربح ، بل حتى لا نلعب على فراغ ، لأن ذلك في رأيه من أسوأ العادات ! .. وطلب « زورين » نوعا من الشراب ، حملني على أن أؤتقه ، وهو لا يفتأ يردد أن على أن اتعود الخدمة ، وأن الخدمة بلا شراب لا تجدي فتيلا .. وتحدثت وكانت جرأتي تزداد بازدياد عدد الاقتراح التي أرفضها في كل مرة ، حتى أصبحت

كراتى تقفز فوق حافة الطاولة قفزا . وانفعلت ، فالتفت  
العداد بأنه لا يحسن العد ، وأنه يربى أخطاى ساعة بعد  
ساعد .. والخلاصة أنني تصرفت تصرف طفل ترك له الحبل  
على غاريه . وكانت الساعات - أثناء ذلك - تنفضى .. وأتى  
زورين نظرة سريعة على الساعة ، ثم وضع عصاه معلنا أنني  
قد خسرت مائة روبل . واضطربت لهذا اضطرابا غير قليل ،  
لأن دراهمى كانت مع سافيليتش ، فآخذت أقدم له أعذارى  
.. ولم يدعنى أتم كلامى ، بل قال : « لا داعى إلى القلق ..  
استطيع أن أمهلك ! .. هل تحب أن تأتى معى ؟ .. من  
الممكن الآن أن أقدمك إلى آرينوشكا ! » .

واستجبت لدعوته ، وأنهيت النهار فى حماقة وبلاعة كما  
بدأته . فقد تعشينا عند آرينوشكا . وكان زورين ما بنفسك  
يسكب لى قدحا بعد قدح ، وهو يردد أن على أن « اتعود  
الخدمة » ! .. وحين نهضنا عن المائدة ، كنت لا أكاد أستطيع  
الوقوف من شدة السكر .

وكان الليل قد انصف حين أعادنى زورين إلى الفندق ..  
واستقبلنا سافيليتش لدى الباب ، فصرخ حين رأى على  
هذه الحال من الحماسة للخدمة ! ، وقال بقاؤه : « ماذا  
حرى لك يا سيدى ؟ .. أين مضيت حتى عدت على هذه  
الحال ؟ .. رياه ! لم أشهد فى حياتى منظرا كهذا المنظر » .  
فغائبات أجيب : « أسكت يا عجوز النحس . لملك سكران !  
.. ضعنى فى السرير ، واذهب إلى النوم » .

وفى الصباح التالى ، استيقظت من نومي وأنا أشعر بصدا

عائل ، ولا أكاد أتذكر حوادث البارحة . وقطع سافيليتش  
تأملانى ، وقد أقبل يحمل إلى قدحا من الشاي . وقال  
وهو يهز رأسه : « لقد بكوت يا بترو أندريفتش .. وما زلت  
أصفر سنا من أن تسفرسل هذا الاسترسال .  
ثم من أين أتاك هذا ؟ .. ما كان أبوك سكران ، ولا كان جدك  
سكران . أما أمك فلا داعى إلى ذكرها هنا ، فانها لم تشرب  
فى حياتها كلها غير عصير الفاكهة ! .. ومن المسئول عن  
هذا ؟ .. إنه ذلك « المسيو » اللعين (١) .. كان لا يترك  
يسرع إلى حانة أنتيفنا يقول : « أرجوك ، يا مدام .. فودكا !  
.. هذا ما أوصلنا إليه ذلك المسيو الفرنسى . لقد علمك  
أشياء جميلة جدا ، هذا الكلب ابن الكلب .. كأنها كنا فى  
حاجة إلى أن يريك رجل هرطيق ! .. كان لم يكن فى البيت  
ما يكتفى من فاس عقلاء ! » .

وشعرت بالخجل والعار . فأسحت وجهى ، قائلا : « اذهب  
بإسافيليتش ، فليست فى حاجة إلى شاي » . ولكنه كان إذا  
استرسل فى مواعظه ، يستحيل إيقاضه . فاستمر يقول :  
« هل رايت الآن يا بترو أندريفتش ما نتيجة الشراب ؟ .. إنه  
يثقل الرأس ، ويفقد شهوة الطعام . إن الرجل الذى يشرب  
لا يصلح لشئ .. هل تحب أن أتيك بقدح من حساء الخيار  
مع العسل ؟ .. الأفضل مع ذلك أن تحتسى نصف قدح من  
شراب قوى .. هل تريد ؟ » .. وفى هذه اللحظة ، دخل



خادم شاب ، يحمل إلى بطاقة من زورين ، غفضت البطاقة ، وقرأت فيها ما يلي :

« صديقي العزيز يترو اندريفتش : أرجو أن ترسل إلى مع الخادم مائة الروبل التي خسرتها أمس في اللعب ، فأنا في حاجة ماسة إليها !

المخلص : ايقان زورين » .

لا مفر .. اصطلمت هيئة من لا يسألني ، واتجهت إلى سافيليتش — الذي كان « مكلفا » بمالي وثيابي وأشيائي — فأمرته أن ينقد الخادم مائة روبل . فمسألني وقد صغق من شدة الدهشة : « لماذا لاأى غرض ؟ » .

— إننى مدين له بهذا المبلغ !

قلت ذلك في أكبر هدوء ممكن ، فأخذ سافيليتش يردد ، وقد ازداد اضطرابه : « مدين له بهذا المبلغ ؟ .. ولكن هل اتسع وقتك حتى الآن للاستدانة ؟ .. يبدو لى أن في هذا الأمر شيئا عجيبا ! .. على اننى إن ادفع المال في أى حال ! » .

وشعرت اننى إن لم أخضع هذا العجوز في هذه اللحظة ، فسيتعذر على أن أتحرق من وصايته فيما بعد . فمرمته بنظرة شامخة ، قائلا : « أنا سيدك » ، وأنت خادمى .. والمال مالى ، وقد خسرته لأن ذلك قد حلا لى . أما أنت ، فأتصحك بالآ تتحذلق ، وبأن تطيع ما يلقى إليك من أوامر ! » .. وبلغ سافيليتش من شدة الدهشة أنه لم يجد ما يجيب به

غير أن عقد يديه ، فصحت قائلا في لهجة من فرغ صبره : « ماذا تنتظر ؟ » .. فأخذ يبيكى ، ثم قال بصوت مرتجف : « ياتوشكا يترو اندريفتش ، لا تمتنى غما وكربا ! .. يا قلبى العزيز ، أطع مربيك القديم . أكتب إلى هذا اللص أنك كنت هازلا غير جاد ، وأنا لا نحل مثل هذا المبلغ .. مائة روبل ! يا إلهى ! .. قل له إن أبويك قد حظرا عليك حظرا مطلقا أن تلعب على غير حبات من البندق ! » .

قلت في قسوة : « كفى شررة ! .. هات المال ، وإلا طردتك بضربات من تعلى ! » .. فألقى على سافيليتش نظرة تنبض بالحزن ، ومضى يأتى بالمسأل . وكنت أشفق على هذا الرجل المسكين ، إلا اننى كنت أريد أن استقل ، وأن أشعر بأننى لست طفلا .. وتسلم زورين المال . ثم سارع سافيليتش فأخرجنى من هذا الفندق الذى جسر على الويل .. وأتى بيلغنى أن الخيل معدة . فترك سيبيرسك وفي ضميرى عذاب ثقيل وندامة خرساء .. ولم أودع « معلمى » زورين ، ولا دار في خلدى أننى سأراه مرة أخرى في يوم من الأيام .

- ٢ -

## الدليل الذي ساقته العاصفة !

« ايه أيها البلد المجهول .. »

« ما أتيت إلى هنا طوعا . »

« ولا قادنى إليك جوادى الكريم ، »

« وإثما هي حماستى وبأسى وشجاعتى ، »

« وميلى إلى خبور الحانات .. » - أغنية .

استغرقت - خلال هذه السهرة الثاقبة - في ناملات مؤلمة .. أن المبلغ الذى غددته ببلغ ضخم ، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى أسعار الأشياء في ذلك الوقت . وكنت لا أستطيع إلا أن أدرك أن سلوكى في الفندق كان سلوكا أبليه على أقل تقدير . وشعرت باننى مخطئ في حق سافيليتش .. كان ذلك كله يعذبنى .

وظل المسكين ساكنا لا يتحرك ، وقد ظهر على وجهه الحزن والأسف ، دون أن ينظر إلى ، ودون أن يخاطبنى بكلمة واحدة .. وكنت راغبا في أن أصالحه حقا ، ولكنى لم أكن أعرف السبيل إلى مصالحته . فقلت له أخيرا : « اسمع يا سافيليتش .. يكفى هذا الآن ، ولنتصالح .. » أدرك الآن أننى مخطئ . لقد ارتكبت بالأمس حماقات ، واليوم اغاظت لك القول دون ما سبب . فاعدك بأن أحسن سلوكى في

المستقبل ، وإن أطيعك في كل أمر . هيا ، هيا ، لا تغضب .. !  
لنتصالح ! » .

فاجاب وهو يطلق من صدره زفرة عميقة : « آه باباتوشكا بترو أندريفتش ، لست ألوم إلا نفسى .. أنا المذنب . كيف امكن أن اتركك وحدك في الفندق ؟ .. إن الشيطان قد اغوانى ! أردت أن أزور امرأة خدام الكنيسة التى كانت اشبينتى .. ما أشقانى ! كيف أمثل بين يدى سيدى ؟ .. ما صي أن يقولوا عنى ، إذا عرفا أن ابنهما يعاقر الخمر ويقامر ؟ » .

وأردت أن أولسيه ، فقطعت له على نفسى عهدا أن لا أنطق بعد الآن غلسا واحدا ( كوكب ) دون موافقته . وهذا روعه شيئا فشيئا ، رغم أنه كان يهز رأسه من حين إلى حين ، وهو يدمم بقوله : « مائة روبل ! .. الكلام سهل ! .. » .

ومضيما نتقدم نحو محط الرجال : حقول حزيننة مغطاة تخرقها هضاب وتتخللها أكاديد من مجارى السيول ، تمتد من حولنا حتى الأفق .. والثلج يغطي كل شيء .. والشمس تغرب .. والعربة تسير في طريق ضيق ، أو قل في ممر شقته عربة من عربات الفلاحين ، وفجأة أخذ الحوذى يحلق في نقطة من الأفق ، ثم التفت إلى وقال وهو يرفع قبعته : « ألا يأمرى سيدى بأن أعود أدراجى ! » . فسأله : « لماذا ؟ » .

— إن الجو لا يبشر بخير ، فالريح أخذت تهب .. انظر كيف تطرد ثرات الثلج !

قلت ساخرا : « خطر عظيم ! » . فقال وهو يسدد سوطه نحو المشرق : « ولكن انتظر هناك ، الا ترى ! » .

— لا ارى إلا سهلا ابيض وسماء صافية .

— وذلك الغمامة الصغيرة ؟

بصرت في أقصى الأفق بغمامة بيضاء ، كنت قد حسبتها راييه بعيدة . فأوضح لى الحوذى انها شذر بعاصفة تلجبة . وكنت قد سمعت عن هذه الرياح العاتية التي تحرب القرى وتدفن في بعض الاحيان ركبانا بأسرها . ونصح سانفيليتش — الذي وافق السائق على مخاونه — ان نعود ادراجنا . إلا ان الريح لم تبد لى قوة جدا . وكنت أمل ان نصل إلى المحطة التالية في وقت مناسب . فامرت الحوذى بان يفسد في السير .

وراحت الخيل تنهب الأرض خيبا . بينما السائق لا يكف عن النظر إلى ناحية الشرق . كانت الخيل تجرى تمسيلة قوية . إلا ان الريح اثبتت . واستحالت الغمامة الصغيرة إلى سحابة ضخمة بيضاء اخذت تتسع — ثقيلة هائلة — وتكبر . حتى غطت السماء كلها . واخذ الثلج يغط . رذاذا دقيقا في أول الأمر ، وسيلانخ (١) ضخمة بعد ذلك . . والريح تزار . إنها العاصفة ! . وما هي إلا لحظة حتى أصبحت الأرض الفسيحة والسماء القائمة بحرا من الثلج .

(١) السيلخ : هو ما تثار من الریش او القطر . . وتستعمل مجازا للثلج .

صرخ الحوذى ، يقول : « إنها العاصفة يا سيدى .. يا ويئنا ! » . فاخرجت رأسى من العربة . فلم أر إلا ظلمات وزوايع تزار كأنها حيوان هائل .. وغطانى الثلج تماما ، كما غطى سانفيليتش . ولم تعد الخيل تتقدم إلا في كثير من الغناء . ثم لم تلبث ان توقفت . فقلت وقد فرغ صبرى : « لماذا لا تتقدم ؟ » . فاجاب الحوذى وهو ينزل عن مكانه : « إلى أين تريد ان اسير ؟ . الله يعلم أين نحن الآن ، فليست ارى طريقا ، وليس ثمة إلا ظلام دامس ! » .

واخذت اكيل له اللوم جزافا ، فتدخل سانفيليتش وداع عنه ، وهدم يقول في حق : « لماذا لم تطعه ؟ . ابيت إلا ان يفتقم . بدلا من ان نعود ادراجنا إلى المنزل ، فنتحسب الشاى وننام حتى الصباح . فتكون العاصفة قد انقضت ، ونستأنف المسير .. ما الذي يدفعنا إلى هذه السرعة كلها ؟ . نحن ذاهبون إلى عرس ! .. » .

\*\*\*

وكان سانفيليتش على حق . ولكن ما من وسيلة لإصلاح الموقف ! . واستمر الثلج يغط ، واخذ يتكوم امام العربة . ورأيت الخيل تطاطح رؤوسها ، وترعد من حين إلى حين . واخذ الحوذى يدور حولها ويرتب عدتها تزجية للوقت . وجعل سانفيليتش يدمسهم متذمرا . اما أنا ، فكنت انظر من حولي إلى جميع الجهات لملى اعثر ولو على اثر للطريق ، او لملى اهتدى إلى مسكن من اله . لكن ، إلا اننى لم أر إلا الثلج بحيط بنا . وعجاة لمحت كتابتي في الجيب : « يا حوذى .. انتظر ! ماذا ترى هناك ؟ » .

وحاولت نظرة الحوذى ان تحترق انظلام . ثم اجاب وهو يعود إلى مكانه . « الله أعلم ما هذا أيها السيد . ليس عو عربة . ولا شجرة . . لكانه يتحرك . لعله ذئب ، أو إنسان . »  
 فامرته ان يمشى نحو هذا الشيء المجهول ، الذى كان يتقدم نحونا هو ايضا . وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى التفتنا برجل . فصاح الحوذى يسأله : « انت ايها الاخ ! . قل لنا . هل تعرف أين الطريق ؟ » . فاجاب الرجل : « الطريق ! . هذه هي . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ » .

قلت : « اسمع ايها الاخ الشهم . هل تعرف المنطقة . . هل تستطيع ان تقودنا إلى أقرب مكان مأهول » .

— المنطقة اعرفها . لقد طفتها من كل جهة . طفتها على صهوة الجواد . وطفتها سائرا على القدمين . ولكنك ترى حالة الجو . . اننا لن نسير خطوتين حتى نزول معان الطريق . . والاولى الا نتحرك من مكاننا . وان ننظر هدوء العاصفة وانكشاف السماء . فقد نستطيع عتدنا ان نستبدى النجوم .

وبث هدوؤه الشجاعة فى نفسى . فقررت ان اكل امرى إلى الله . وان اغضى الليلة فى هذا الخلاء ، فاذا بالرجل يتقدم خفيفا إلى مقعد اسائق ، على حين غرة . قائلا له : « الحمد لله . . لسنا ببعيدين عن أحد المساكن . نحول إلى اليمين : وهيا بنا ! » . فسأله الحوذى مغتظا : « وماذا هناك على اليمين ! » . واين ترى الطريق ! . . إن الخيل ليست لك . والعربة ليست لك . وليس يؤمك ان تموت الخيل او تنحطم العربة ! » .



فصاح الحوذى يسأله : « انت ايها الاخ ! . هل تعرف أين الطريق ؟ » .

وبدا لى ان السائق على حق . فاعترضت على اقتراح الرجل ، قائلا : « هذا صحيح ، كيف تعرف ان هناك مكانا ؟ » . فاجاب الرجل موضحا : « ان الريح تأتي من هذه الجهة ، وانى لاشم فيها رائحة الدخان .. وهذا دليل على ان ثمة قرية ليست عنا ببعيدة » .

وادهشنى حدة نكاته ، ورماهة شمه . فامرت الحوذى ان يتقدم . وسارت الخيل بمشقة . وهى تغوص فى كل لحظة .. ولم تتقدم العربية الا فى كثير من البطة ، وكانت تارة تصطدم بكومة من الثلج ، وتارة تنزلق فى أخدود . « هى فى كل الأحوال تنارجح ذات اليمين وذات الشمال ، كأنها قارب تتقاذفه الأمواج فى عرض البحر . وكان سافلينى يزهر زفرات ملؤها الضيق . ويرتطم بى فى كل لحظة .

وأسدلت الستار ، وتلنعت بمعطى . وغفوت بهدهدى غناء العاصفة وتموج العربية . فرايت فيما يرى النائم حبا لم استطع أن أنساه فى حياتى ، وما زلت إلى اليوم أرى فيه نوعا من النبوءة لا سيما حين أقرنه بالأحداث العجيبة التى كتب على أن أعيشها . وأرجو أن يعفونى القارئ ، فعمله يعرف بالتجربة ان الإنسان محمول على الاعتقاد بالخرافات . برغم احتقاره الشديد لجميع الاعتقادات السخيفة التى تعيش فى عقول العامة .. وقد كتبت فى تلك الحالة النفسية التى يتقهقر فيها الواقع أمام الحلم ويختلط به ، ففتشا من اختلاطهما هذه الرؤى المبهمة التى تراود المرء عند أول النوم ..

رايت فيما يرى النائم ان الزوبعة ما زالت تخرب ، وأنا ما زلتا نضرب فى صحراء يغطيها الثلج .. وفجأة رايت بابا لدخول العربات ، فدخلنا ، فاذا نحن فى باحة منزلنا المنيف . وكان أول ما خطر ببالى هو ان اتحاشى غضب أبى الذى قد يلومنى على هذه العودة غير المقصودة ، إذا يؤولها بأنها عصيان مقصود . فنزلت من العربية وأنا أشد ما أكون قلقا ، فرايت أمى تقبل على . ووجهها يعبر عن كرب شديد . قالت : « بهدوء ! .. أبوك مريض جدا . انه يحتضر ، ويريد ان يودعك الوداع الأخير ! » .

فصعدت من الذعر ، وتبعت أمى إلى غرفة النوم . وكان الضوء فيها خائفا شاحبا . فرايت أناسا واقفين إلى جانبي السرير ، وقد تجهت وجوعهم حزنا . اقتربت على رؤوس الأصابع ، وأزاحت أمى السجف ، وهى تنادى أبى بقولها : « اندريه بتروفتش .. بتروشا هنا .. لقد عاد حين علم انك مريض . ادع له ، وأرض عنه ! » .

فركعت ، ورفعت نظرى إلى المريض . يا إلهى ! .. ام ار أبى ، بل رأيت فلاحا ذا لحية سوداء ، يحدث فى وهو يتنسم ابتسامة مرحة . فالتفت نحو أمى مضطربا أقول : « ما معنى هذا ؟ ليس هذا أبى ! .. لماذا يجب على أن اطلب الرضى والبركة من هذا الفلاح ؟ » . فاجابت : « سيان يا بتروشكا .. إنه أبوك المتبنى .. قبل يده ، واطلب رضاه ! » .

رفضت أن أقبل .. عندئذ نهض الفلاح من السرير تقرا ، واخذ يجوب الغرفة مشهرا . فوجدت ان أهرب فلم



استطع . وامتلات الغرفة بالجثث اتعثر بها وأغوص في برك  
من الدماء . وناداني الفلاح بصوت حنون : « لا تخف ! »  
تعال اطلب الرضى والبركة ! » . فاستقلت من نومى وأنا  
اشد ما أكون ذمرا ورعبا واضطرابا . وكانت الخيل تد  
توقفت ، وكان سافيليتش قد أمسك بيدي . وهو يقول :  
« انزل يا سيدى ، لقد وصلنا » . وسالته وأنا أفرك عيني :  
« إلى أين وصلنا ؟ » .

— إلى النزل . . لقد هدانا الله ، غسرنا على خط مستقيم  
هذاه سد . حتى وصلنا إلى هنا . هيا انزل ، واذهب إلى  
الشار تستدقى !

\*\*\*

تركت العربة . . وكانت العاصفة ما تزال تزار ، إلا أن  
زئيرها قد خف . وكان الليل حالكا جدا . . واستقبلنا صاحب  
البيت عند المدخل . وهو يمسك القنديل بيده ويحميه من  
الريح بطرف ثوبه . وقادنى إلى غرفة نظيفة . ولكتها ضيقة .  
بضبتها مصباح ، وعلى حائطها علقت بندقيّة وقبعة قوزاقية  
.. فان صاحب البيت توزاقي الأصل ، فلاح في الستين  
من عمره ، نضر نشيط . ودخل سافيليتش يحمل صندوقى  
بيده ، وطلب نارا ليبيء الشاي . وخبل إلى أنه ما اشتبى  
الشاي في حياته مثله اشتهاه إذ ذاك ! . ومضى الفلاح يحضر  
ما يجب تحضيره .

وسالت سافيليتش « وأين الدليل ؟ فأجاب صوت  
من فوقى يقول : « إني هنا يا سيدى النبيل » . فرفعت  
بصرى إلى السقف ، فرأيت لحية سوداء ، وعينين براقتين .

— بررنا كثيرا ، اليس كذلك ؟  
— واى برر ! لا سيما أننى لا ارتدى إلا هذا المعطف  
الملون . . كانت لى فروة ، ولكنى لا اكتمك أننى رهنتها أمس  
عند أحد أصحاب الحانات . لم أكن أتوقع أن يكون البرد  
شديدا إلى هذا الحد !

وفى هذه اللحظة ، دخل صاحب المنزل وهو يحمل إبريق  
الشاي يتصاعد منه البخار . ندعوت الدليل إلى قدح من  
الشاي ، فترك السقف وأقبل نحوى . وبدأ لى مظهره  
غربيا يلفت الانتباه . . كان فى الأربعين من عمره ، ربسع  
القامة ، نحىلا . . إلا أن كتفيه عريضان . وقد اشعل  
الشيب فى لحينه السوداء . . وعيناه الواسعتان القويتان  
لا تستقران على حال . وللامحه وسامة يشوبها مكر وخبث .  
وكان يرتدى معطفا ممزقا وسروالا كالحا . قدمت له قدحا  
من الشاي ، فلما ذاقه ، ارتسمت على وجهه ملامح التقزز  
وقال : « أيها السيد النبيل . . مر لى بقدح من الخمر ، فليس  
الشاي شرابا لتوزاقي ! » .

وبادرت فلبيت طلبه . فقام صاحب البيت إلى خزانة  
صغيرة ، تناول منها زجاجة وقدحا ، ثم اقترب من الدليل ،  
يريد أن يسكب له الخمر . فإذا هو يقول وقد تفرس فى  
وجهه : « أهذا أنت ؟ . . عدت إلى هذه الأراضى ! . . من  
أين تذهبك الأقدار ؟ » .

فغمزه الدليل غمزة ذات معنى ، وأجاب يقول بأشكال  
معقدة : « كنت فى المزرعة ، وقتها تشرت . . رمتنى الأم العجوز  
بجحر ، لكنها أخطأتنى . كيف حال جيافتكم ! » . فأجاب

المضيف يكمل هذا الحوار الرمزي : « جماعتنا .. كانوا قد أخذوا يصلون صلوات العصر . إلا أن الكاهنة منعتم .. الكاهن في زيارة ، والشياطين في المقبرة ! » . فاجاب المتشرد : « كفى يا عم ! .. حين تمطر السماء تنبت الكهافة . ومن قال كهافة نال كهافة .. والان ( وهنا غمز بعينه ) خبيء فأسك ! فالحارس غير بعيد ! .. أيها السيد النبيل . اننى اشرب نخبك ! » .

ثم تناول الكأس ، فصليب وافرغها في جوفه دفعة واحدة ، ثم حيائى . وقفز مرة أخرى إلى السقيفة .

\*\*\*

لم أنهم شيئا من حديث اللصوص هذا ، ولم أحرص إلا فيما بعد أن الكلام كان يدور حول فرقة البائيق القوقازية . التى اخمدت ثورتها منذ مدة قصيرة ( عام ١٧٧٢ ) . كان سافيليتش يصفى إلى الحديث وقد لاح عليه الامتعاض . وراح يلقي على صاحب البيت وعلى الدليل نظرات ارتباب .. كان النزل في قلب الفيافي ، بعيدا عن كل قرية ، كأنه ملجأ عصاية من اللصوص . إلا أنه لم يكن ثمة مجال للتردد ، ولا كان يمكن التفكير في استئناف السفر . واضحكتنى مخاوف سافيليتش ، ثم نمت فوق مقعد طويل . ومضى سافيليتش يعتمص بمصطبة المدفأة ، وتمدد صاحب البيت على الأرض . ولم يلبث النزل أن امتلا شخيرا مدويا ، واستغرقت في نوم عميق ثقلى .

واستيقظت في الصباح متأخرا ، فلاحظت أن العاصفة قد هدأت ، وأن الشمس تسطع . كان الثلج يفرش الأرض بساطا

لامعا ممتدا إلى الأفق . وكانت الخيل في انتظارنا ، فدفعت لصاحب النزل ما طلبه من أجر .. وكان أجرا زهيدا ، لم يعترض عليه سافيليتش . على خلاف عادته - حتى لكأنه نسى ظنون الأمل . واستدعيت الدليل أشكره على حسن صنيعة . وأمرت سافيليتش أن يعطيه خمسين كويك . نامتعض العجوز امتعاضا شديدا ، وقال : « خمسون كويك ؟ لماذا ؟ .. الا انك تفضلت عليه فنقلته إلى المنزل بالعربة ؟ .. على رسلك يا سيدى . فخمسيناتنا لا تزيد عن حاجتنا » . وإذا نحن أخذنا نبذر دراهمنا ذات اليهين وذات الشمال فلن يبقى لنا ما نسد به جوعنا ! » .

ولم يكن في وسمى أن اعترض ، فلقد وعدت سافيليتش أن يكون المال بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . ومع ذلك ، كان يؤسفنى الا أستطيع أن اكافئ هذا الرجل الذى اتقطنى من مازق حرج . إن لم يكن من كارثة . فقلت في هدوء : « حسنا . إذا كنت لا تريد أن تعطينه نقودا ، فاعطه شيئا من ملابس . فثيابه قليلة لا تقيه القر .. أعطه فرائى المصنوع من جلد الأرنب مثلا ! » .

فقال سافيليتش : « اوه » باتوشكا بترو آندريفيتش ! ما حاجته إلى فرائك ؟ .. إنه سيمتركه في أول خمارة ، هذا الكلب السكير ! » . فقال المتشرد : « هيه أيها العجوز ! .. ليس يعينك أين أتركه . إن السيد النبيل قد « خلع على فرائه » ، تلك كانت مشيئة السيد ، وليس من شأنك أن تناقش ، وإنما عليك أن تطيع كلام أمين ! » .

فأجاب سافيليتش بمسوت يرتجف غضبا : « ألا تخاف الله أيها اللص ؟ .. ألا ترى أن هذا الطفل لا يفهم شيئا ؟ .. ألا تستحي من استغلال سذاجته لتنهبه ؟ .. ثم ما حاجتك إلى فراء صغير لا تستطيع أن تضعه على كتفك وضعا ؟ فضلا عن ارتدائه ؟ .. » فقاطعه قائلا : « كفى جدالا ، هات الفراء في الحال ! » ، فتأوه سافيليتش ، قائلا : « يا الهي ! .. الفراء شبه جديد ، وليته يهبه لإنسان محترم .. انه يهبه اسكر مشرد حافي القدمين ! » .

وظهر الفراء مع ذلك .. وما لبث الفلاح ( المويجك ) أن أخذ يجريه . والحق أن الفراء كان ضيقا على : فكيف لا يكون ضيقا عليه ؟ .. واستطاع مع ذلك أن يندس فيه ، مقتفيا إياه من جميع الجهات . ولم يجار سافيليتش . وسدا المتشرد راضيا كل الرضى عن هديتي ، تشيعني حتى العربة ، وائحنى يودعني في تحية عميقة ، قائلا : « شكرا أيها النبيل ، جزاك الله عن كرمك خيرا . لن أنسى فضلك ما حييت ! » .

ومضى إلى سبيله . وتابعنا نحن رحلتنا . ولم التفت قط إلى تأوهات سافيليتش ، وسرعان ما نسيت عاصفة الباردة والدليل والقراء .

\*\*\*

فلما وصلت إلى ( أورنبرج ) ، مضيت راسا إلى بيت القائد اللواء . فرايت رجلا نارع القامة . مقوس الظهر بعض الشيء - من الشيفوخة - طويل الشعر أشيبه تماما ، تذكر بدلقته

العسكرية المجرئة الكالحة بالحاربين في عهد آنا ايفانوفنا (١) وفي لهجته لكثة المانية قوية .. وناولته رسالة أبي . وحين ذكر له اسمي ، القى على نظرة سريعة ، وقال : « ماشاء الله ! منذ مدة غير طويلة كان أندريه بتروفيتش في سنك . والآن اسبه له ولد كبير مثلك . الزمان ينكدي بسرارة ! » (٢) .

وفض الرسالة ، وأخذ يقرؤها بصوت مسهوع ، مضيفا إليها ملاحظات من عنده : « عزيزي أندريه كارلوفيتش : أرجو أن تكون سعادتك .. » .. ما هذه التازيمات والتخبيزات ؟ .. طبعا ، الزوام قبل كل شيء . ولكن هل هكذا يخاطب رفيك كديم ؟ (٣) .. « لعل سعادتك لم تنبسي .. آه ! .. » .. الزمن .. المرحوم مارشال موتيد .. الفرقة .. وكذلك كارولين .. آه ، إنه ما زال يذكر رذالاتنا الكديمة .. ولكن لتتحدث في الأعمال ! (٤) .. « أرجو أن ترفع يده عاليا » . ما ماني هذا ؟ .. لاشك أنه تاير روسي كه ! (٥) .

(١) آنا ايفانوفنا : امبراطورة روسيا من ١٧٢٠ الى ١٧٢٠

(٢) يقصد : « منذ مدة غير طويلة ، كان أندريه بتروفيتش في سنك » ، والآن أصبح له ولد مثلك .. الزمان يتقضى بسرعة ..

(٣) « ما هذه التخبيزات والتخبيزات .. طبعا ، النظام قبل كل شيء ، ولكن هل هكذا يخاطب رفيقا قديما ؟ » .

(٤) « آه ! .. انه ما يزال يذكر رذالاتنا القديمة . ولكن لتتحدث في

الأعمال ! » .

(٥) « ما معنى هذا ؟ .. لا شك أنه تاير روسي كه » .

الفرام . ليس لك شغل في أورنبورج ، ولا يليك بشاباب ان يبكى آتلا ان الأمل - واليوم تتفدى اندى ! (١) .

قلت في نفسي : « عال ، عال ! .. ماذا افادنى ان سجات رقيبا في الحرس من قبل ان اولد ؟ .. إلى أين اوصلنى هذا ؟ إلى كتيبة « ن . ن » في حصن على حدود نياكي كراغيز ١٨ » .  
وتفديت مع اتدريه كارلوتش ومساعداه العجوز .  
وكان يسبطر على المائدة اقتصاد الماني قاس ، واغلب الظن انه ما نقلنى إلى الحصن إلا خوفا من أن يرى ضميما جديدا على مائدته وهو أعزب . واستاذنت القائد اللواء في الغد ، واستأنفت سفرى إلى المكان الذى عين لى .

(١) « والان ، أيها الولد الشجاع ، سنعمل كل شيء .. سننقلك إلى كتيبة « ن . ن » برتبة شاباب . ولكن لا نضع الوقت ، سنسير منذ الغد إلى حصن بيلوجورسكايا . وتتعرف هناك إلى رئيسك الجديد ، القباط الرئيس ( الكابتن ) ميرونوف . وهو رجل طيب وسخيم . ستكون هناك في الخدمة الطبية ، وستعلم النظام . ليس لك شغل في أورنبورج ، ولا يليك بشاباب ان يبكى عاطلا عن العمل . واليوم تتفدى اندى ! .. »

م ٣٢ ماريا ايفانوفنا

قال ذلك ملتفتا إلى يسألنى . فاجبت وأنا اصطنع غاية البساطة : « معناه ان يعامل المرء معاملة حسنة ، لا قسوة فيها ولا صرامة ، وان يمنح اكبر قدر من الحرية . هذا هو معنى رفع اليد عاليا : » .

— ها ! فهمت ! .. « وان لا تمنحه كثيرا من الحرية » .. لا ، لا . التكد ان الإبرة ثانى شيئا آخر (١) .. « تجد مع هذه الرسالة جواز سفره .. « أين هو ؟ .. آه ، هذا هو ! .. « أرجو ان تكتب إلى سيميونوف .. « نام ، نام ، سنأمل كل شيء » (٢) « اسمح لى ان أقبلك بلا حرج ولا كلفة .. صديقك القديم ورفيقك » .. آه ، أنه يفكر ما ذلك (٣) .

قال وقد قرأ الرسالة ووضع جواز السفر جانبا :

— والان أيها الولد الشجاع ، سنأمل كل شيء .. سننقلك إلى كتيبة « ن . ن » برتبة دايت ، ولكى لا نضيع الوقت . سنسافر منذ الغد إلى حصن بيلوجورسكايا ، وتعارف هناك إلى رئيسك الجديد ، الدايت الرئيس ميرونوف ، وهو رجل طيب ومهترم . وستكون هناك في الخدمة الثقيلة ، وستفهم

(١) « لا ، لا .. اعتقد ان العبارة تعنى شيئا آخر ! .. »

(٢) « نعم ، نعم .. سنعمل كل شيء »

(٣) « آه ، أنه يفكر مع ذلك ! .. »

- ٣ -

## ابنة أمر الحصن !

« نعيش في حصن ،

« طعامنا الخبز ، شربنا الماء ،

« إن جاءنا يوما عدو كاسر ،

« ينازعنا طعامنا ،

« أقمتا له وليمة من نيران المدافع . »

من أغاني الجنود

يقع حصن ( بيلوجورسكايا ) على بعد أربعين غرسا  
من ( أورلجورج ) ، ويمتد الطريق إليه على حافة نهر ( الليانيق )  
الصخرية . ولم يكن الجليد قد بلغ النهر بعد ، فكانت المياه  
تتدفق بين حافته المكونين بالثلج حزينة بلون الرماد .  
و وراء الضفة الثانية كانت تمتد نياقي ( كرفيز ) .

وغرقت في تأملات حزينة . . لم يكن في حياة الثكنة  
ما يجذبني البتة . وحاولت أن أتصور الضابط « ميرونوف »  
- رئيسي المقبل - تفخيلته عجوزا ، قاسيا صارما ، لا يعرف  
شيئا غير عمله العسكري ، ويستطيع أن يعاقب على الأقل  
هفوة بالصيام على الخبز والماء . وجاء المساء وأنا غارق في  
هذه التأملات ، فقد كنا تسير بسرعة . . فسألت الحوذي :  
« هل الحصن بعيد ؟ » .

- بل هو ذا ! . . لقد وصلنا !

فالتفت إلى جميع الجهات ، وأنا أتوقع أن أرى فوهات  
مسددة ، وسورا ، وقلاعا . . ولكني لم أر إلا قرية صغيرة ،  
محصاة بحاجز من جذوع السنديان . ورايت في إحدى  
الجهتين ثلاثة أو أربعة بيادر من العلف غطاها الثلج ، وفي  
الجهة الأخرى طاحونة مائلة إلى الجانب ، متراخية الأجنحة  
في كسل . فسألت في دهشة : « وأين الحصن ؟ » . فاجاب  
السانق ، وهو يشير إلى القرية التي لم نلبث أن دخلناها :  
« هو ذا الحصن ! » .

كان على مدخل القرية مدفع قديم من الصلب . .  
والشوارع ضيقة متعرجة « والبيوت مجمدة » ستونها من  
قش . . وأمرت السائق أن يذهب بي إلى منزل آمر الموقع .  
فما هي إلا لحظة حتى وقفت العربة أمام بيت خشبي ، مبني  
على مرتفع غير بعيد من الكنيسة .

ولم يأت أحد لاستقبالي ، فدخلت الدهليز ، وفتحت  
الباب المؤدي إلى الحجرة الأولى ، فرأيت عجوزا مقطوع  
الساق ، جالسا إلى طاولة ، يرقع الكوع من بدلته العسكرية  
الخضراء بقطعة من نسيج أزرق ، فأمرته أن يستأذن لي  
بالدخول ، فقال : « أدخل يا بني ، ان جماعتنا في البيت ! »  
. . فدخلت . وإذا أنا في غرفة نظيفة ، مؤثثة على الطراز  
القديم ، في ركن منها خزانة للأواني : وعلى أحد جدرانها  
علقت شهادة ضابط ذات إطار ، وعلى الحائط صور نقوشة  
نقشنا سينا ، تمثل الاستيلاء على كوسترين وأوتشاكوف .



ثم لوحة « اختيار خطيبة » ، ولوحة « جنازة قطعة » ..  
وإلى جوار النافذة جلست امرأة ترتدى معطفا مبطناً بفراء ،  
وعلى رأسها وشاح ، آخذة بلف « شلة » من الخيطان .  
امسكها امامها - بيديه المتباعدين - رجل مسن قصير أعور ،  
يرتدى لباس ضابط .

وسألتنى المرأة دون أن تقطع عملها : « ماذا تريد يا بنى ! » ،  
فأجبت باننى - وقد هينت في الحصن - جئت أقدم نفسى  
للسيد الضابط - ومقابل ما يقتضيه الواجب . والتفت - وأنا  
أقول هذا الكلام - نحو المعجوز الأعور . لظنى أنه هو الأمر .  
إلا أن صاحبة البيت قاطعت كلامى المهيا ، قائلة : « لقد خرج  
إيفان كوزميتش .. ذهب يزور الأب جراسيم . ولكن سيات  
فانا امراته ، وآمل أن تصبح أصدقاء . اجلس يا بنى ! » .

ثم نادى الخادم ، وأمرها أن تدعو الوكيل . وادار المعجوز  
القصير نحوى عينه الوحيدة ، ورمقنى بنظرات مستظلمة .  
وقال : « هل تسمح لى أن أسالك : في أية فرقة كانت خدمتك  
المسكينة ؟ » .. فأرضيت حبه للاستطلاع !

- وهل أجرؤ أن أسالك ، لماذا تركت الحرس . وكيف  
سرت إلى ثكنة في الريف ؟

فأجبت بان منسبة رؤسائى كانت كذلك .. فأضاف  
المائل الذى لا يكل ولا يمل : « ربما لأمر لا تتفق ومكاتب  
ضابط في الحرس ! » .. فقالت الأميرة : « كفى ثثرة ! ..  
لا ترى أن الفتى قد وصل منذ هنيهة ؟ .. لا شك أنه ميت  
من القعب ، ولا يتسع وقته للاهتمام بك والإجابة على

اسئلتك . الأحسن من هذا : أن تزيد في مد يدك إلى  
إمام ! » . واستأنفت تقول ملتفتة نحوى :


- وانت يا بنى . لا يحزنك أنك أرسلت إلى هذا المكان  
المنعزل .. لست الأول ولا الأخير .. سستعود ! انظر إلى  
« شفايرين الكساي ايفانوفتش ! » .. لقد نقل إلى هنا منذ  
خمس سنين لقتله أحد الضباط . ذهب مع أحد الملازمين  
إلى ظاهر المدينة ، واصطحب كل منهما سيفه . وظلا  
يتضاربان إلى أن بقر شفايرين بطن الملازم .. وكان ذلك  
يحضور شاهدين .. هذه هي الدنيا ، فماذا تريد ؟

وفي هذه الحظة . دخل الوكيل .. وهو قوزاقى شساب ،  
حسن الهندام . فقالت له الأميرة : « مكسيمتش ، أبحث  
عن مسكن لحضرة الضابط . وليكن نظيفاً ! » .

- أترك مطاع يا غاسبيلسا بيجوروفنا . ما رأيك في أن  
نسكن صاحب القبالة عند إيفان بوليانيف ؟

- أنت تعرف يا عزيزى .. ليس في بيت بوليانيف مكان .  
ثم إن بوليانيف قريبى ، وهو لا ينسى أبدا أننا رؤساؤه ..  
لا ، الأفضل أن نقود حضرة الضابط .. ما اسمك يا بنى ؟

- مترو اندريفتش ..

- الأفضل أن تقود بترو اندريفتش إلى بيت سيمون  
كوزوف .. إن هذا السافل  بطوف في  
بساتنى . هل كل شيء هادئ ؟

فاجاب القوزاقى : « كل شيء هادىء ، يحمده الله . عدا ان العريف بروخوروف قد تشاجر بالحمام - امس - مع اوستينيا نيجولين ، على دلو من الماء الساخن » .

قالت الامرة بلطفة إلى الضابط الاعور : « اين اجناتش ، احضر بروخوروف واوستينيا » وانظر ابهما المذنب وابهما البريء ، وعاقبهما معا . وانت يا مكسيمتش ، تستطيع ان تذهب .. بترو اندريفتش ، سيدك مكسيمتش على مسكك ! » .

محبيت الامرة .. وقادنى الضابط إلى دار ( كوزوف ) ، وهى قائمة على مرتفع فوق التهر فى آخر الحصن .

\*\*\*

كانت اسرة « كوزوف » تشغل نصف البيت ، توضعوا النصف الآخر تحت تصرفى . وهو غرفة نظيفة ، يقسمها حاجز إلى غرفتين . وجعل سافيليتش معنى بترتيب الأشياء ، بينما اخذت اسرح النظر من خلال نافذة ضيقة .. كانت الفياق الحزينة تمتد أمامى إلى مدى البصر ، وبعض البيوت ترى من الجانب ، وحاججات تهم فى الشارع ، وامرأة عجوز واقفة على درجات باب البيت تضادى الخنازير - وفى يدها معلق - والخنازير تجيب نداءها بهمر ودى . فى بلد كهذا كتب على أن اقضى صباى ؟ . وتملكنى سام عقيق ، فتركت مرصدى ، ونمت دون عشاء ، برغم إلحاح سافيليتش فى محاولة إقناعى بضرورة الطعام . فكان لا يتفكك بردد ، قائلا : « يا إلهى ! انه

لا يريد ان ياكل شيئا ! .. ما عسى أن تقول سينقى إذا وقع ابنها مريضا ؟ » .

وما كدت ابدا فى الصباح بارقداء ثيابى ، حتى فتح الباب ودخل ضابط شاب ، ليس بالطويل ، اغبر الوجه دميحه جدا ، على حيوية ونشاط .. فقال بخاطبتى بالفرنسية : « اعذرنى إذا انا جئت اتعرف إليك بلا حرج ولا كلفة ! .. لقد علمت بوصولك امس ، فاذا الرغبة فى أن أرى - أخرا - وجهه إنسان ، تملك على مشاعرى ، فما استطعت أن أحبس نفسى عن المجئ . مستير سلوكى هذا بعد أن تقضى هنا بعض الوقت ! » .

حزرت انه الضابط الذى طرد من الحرس لانه قاتل فى مبارزة . وسرعان ما تعارفنا .. ولم يكن بالقبى . وإن حديثه لمرح رشيق فكه .. وأخذ يصف - فى كثير من السخر اللاذع - اسرة الامر ، وسكان المنطقة ، وهذا البلد الذى ساقنى إليه القدر . وكنت أضحك من أعماق قلبى ، عندها دخل ذو الساق المقطوعة : الذى كان يرقع بالأمس بدلته العسكرية فى مدخل بيت الامر ، قدمائى باسم « فاسيليسا بيجوروفنا » إلى طعام الغداء ، وعرض على « مغاليرين » أن يصحبنى .

وحين اقتربنا من بيت الامر ، رأينا - فى ساحة صغيرة - ما يقرب من عشرين رجلا من مشوهى الحرب ، ذوى ضغائر طويلة ، قد انقلموا فى صف واحد . ورأينا الامر واقفا امامهم ، وهو عجوز فارغ القامة رشيق . على رأسه طاقية ، ويرتدى ثوب المنزل . فلما رأتى اقبل علينا ، وقال لي بضع

كلمات ودية ، ثم عاد إلى تدريسه . فوقفنا ننظر إليه . غير أنه رجائا أن نمضي إلى فاسيليا بيجوروفنا . قائلا إنه سيتبعنا بعد قليل . ثم اضاف : « ليس ها هنا ما يستحق أن يري ! » . واستقبلنا فاسيليا بيجوروفنا ببساطة ومودة . وعاملتني معاملة من يعرفني منذ زمان طويل ، واخذ ذو الساق المتطوعة و « وبالاشكا » - الخادم - يهيئان المائدة . وقالت الأمرة : « إن صاحبنا ايفان كوزميتش يقوم بالتدريب .. يا بالاشكا . قولي لسيدك إن الطعام قد هبى .. ولكن اين ماشا ؟ » .

وفي هذه اللحظة ، دخلت فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، بدورة الوجه . وردية الوجنتين . شعرها الاثغر مسدل إلى وراء .. ولم تعجبني كثيرا في اول الامر .. فنظرت إليها في نوع من الادعاء . وكان شهابرين قد وصف لى « ماشا » - ابنة الضابط الرئيس - على انها فتاة غبية حياء !

وجلست « ماريا ايفانوفنا » (١) في ركن من الغرفه ، واخذت تخط . وفي أثناء ذلك ، صب الحساء في الصحون . فلما رأت فاسيليا بيجوروفنا أن زوجها لم يصل بعد ، ارسلت « بالاشكا » مرة أخرى تستحثه على المجيء ، قائلة : « قولي لسيدك إن الضيوف ينتظرون ، وأن الحساء يوشك أن يبرد . الحمد لله على أن التدريب ليس بالمستعجل ، فالوقت أمامه طويل لبح صوته ! » .

(١) الاسم الكامل لابنة أمير الحصن .

وما هي إلا لحظة ، حتى ظهر الضابط الرئيس . يتبعه الضابط الاعور . فقالت له امراته : « ما هذا يا عزيزى ؟ .. إن الطعام على المائدة منذ مدة طويلة . ولم نتوصل إلى إحضارك إلا في هذه اللحظة ! » . فاجاب ايفان كوزميتش : « ولكم تعلمين يا فاسيليا بيجوروفنا أنني أقوم بواجبى . وأدرب جنودى الشجعان ! » . فرددت الأمرة : « كفى كفى .. هذا كلام ! .. إن جنودك لن يتوصلوا إلى تعلم الخدمة العسكرية ، وأنت نفسك لا تفقه منها شيئا . خير لك أن تبقى في البيت ، وأن تصلى ! .. أيها الضيوف نرجوكم أن تشرّفونا ! » .

\*\*\*

وإذا جلسنا إلى المائدة . لم تنفعل فاسيليا عن الشرقة لحظة واحدة ، وأغرقتني بسيل من الأسئلة : من هما أبواى ، هل هما على قيد الحياة . اين يقطنان ، ما هي حالتها المالية ؟ .. فلما علمت أن أبى يمك ثلاثمائة نفس . قالت : « ما زال في الدنيا اناس اغتياه ! .. اما نحن يا بنى ، فلا نملك إلا خادمة واحدة . هي البنف بالاشكا .. على اننا نعيش حياة لا بأس بها والحمد لله ! .. ليس هناك إلا شيء واحد بقلقنا ، هو أن ماشا في سن الزواج . وما عسى نستطيع أن نقدم لها مهرا ؟ .. مشطا ، وقميشة ، ومبلغا ضئيلا قدره ثلاثة كوبيكات . اى ما يكفى للذهاب إلى الحمام ؟ .. هذا إذا وجدنا لها مرسدا لانقا . وإلا ظلت عانسا إلى آخر أيامها ! » .

نظرت إلى ماريا ، فإذا هي قد تضرجت بحمرة شديدة ، وهطلت من عينيها دموع على الصحن . فاشفقت عليها ، وسارعت إلى تغيير مجرى الحديث .

قلت في غير مناسبة : « سمعت أن الباشكير كانوا ينون مهاجمة حصنكم » . فسألني ايفان كوزميتش يقول : « أين سمعت هذا يا بنى ؟ » . فأجبت : « ذكر لى فى اورنبورج » . فأجاب الأمر : « هذا خطأ ، اتنا لا نرى شيئا فى هذه المنطقة منذ مدة طويلة .. لقد عرفنا كيف تخيف الباشكير ، وأما الكرغيز فقد أعطيناهم درسا ، فلن يجروؤا أن يهاجمونا بعد الآن .. وإذا حدث هذا يوما ، فليسوف استقبلهم استقبالا يثيبهم إلى رشدهم لعشر سنين على الأقل ! » .

فقلت متجها إلى امرأته ! « الاتخافين من الإقامة فى حصن تهدده هذه الأخطار ؟ » . فأجابت : « لقد تعودت يا بنى .. حين أوفدنا إلى هنا منذ عشرين سنة ، كنت أرهب هؤلاء الكفرة رهبة فظيمة .. كان يكفينى أن ألمح طافياتهم المصنوعة من جلد الثعلب ، وأن أسمع زفيرهم ، حتى يخفق قلبى خفقتا شديدا .. ! أما الآن ، فقد تعودت حتى صرت لا اتحرك من مكاني إذا جاء أحد يقول إن هؤلاء الجناة يحومون حول البلدة ! » . فقال شفاغرين فى لهجة جدية للغاية : « إن فاسيليسا ييجوروفنا سيدة شجاعة . يشهد بذلك ايفان كوزميتش ! » . فقال ايفان كوزميتش : « طبعاً ، طبعاً ! .. لا ترف لها عين ! » .

فسألتها : « هل ماريا ايفانوفنا فى مثل شجاعتك ؟ » . فأجابت الأم : « فى مثل شجاعتى ؟ لا .. لا .. إن ماشا شديدة الفزع . إنها - حتى هذا اليوم - لم تستطع أن تسمع طلقة بنحقية دون أن ترتعد . وحين أمر ايفان كوزميتش منذ سنتين - فى الاحتفال بعيد ميلادى - بإطلاق نيران المدفع ، كادت تموت جزعا .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا لا نقارب المدفع اللعين أبدا ! » .

ونهضنا عن المائدة ، فبضى الضابط الرئيس مع زوجته ليناما قليلا ، وذهبت أنا مع شفاغرين اقضى فى بيته بقية النهار .

- ٤ -

## مبارزة من أجل فتاة !

« لك ما تشاء ، عيا استعد !

» سترى كيف أبقر جلدك ! » - كنياجنين

انقضت بضعة اسابيع .. وبدأت اشعر ان إقامتي في ( بيلوجورسكايا ) ليست محتملة فحسب . بل مليئة كذلك ، بالمثقة والسرور . كانت امرة الامر تستقبلني كأنني أحد اقربائها .. وكان الزوج وزوجه شخصان محترمان : الزوج « ايغان كوزميتش » ابن جندي بسيط . وقد توصل بجده إلى رتبة ضابط .. وهو ضئيل الثقافة إلا انه طيب وشريف . و - بطبيعته - ضعيف الشخصية ، فكانت تقوده امراته . وكانت « فاسيليسا بيجوروفنا » تنظر إلى الخدمة العسكرية نظرتها إلى اعمال بيتها . وتدبر الحصن كما لو كان الامر منزلها الشخصي . أما ماريا ايفانوفنا ، فان نفرتها مني ما لبثت ان زالت . وتوطد بيننا التعارف ، فראيت انها فتاة عاقلة .. بل وعاطفية !

وازداد تعلقى بهذه الاسرة الشريفة شيا بعد شئ ، وفي عدادها « ايغان آجفانتش » : الملازم الأعور الذى ذكر لى « شفايرين » انه عشيق « فاسيليسا بيجوروفنا » .. وهى تهمة باطلة ليس لها ظل من حقيقة ، إلا أن شفايرين لم يكن يزعمه أن يلقى مثل هذه الاقاول البسيطة ! ..

ورفعت إلى رتبة ضابط .. ولم تكن الخدمة مرهقة البتة ، فليس في هذا الحصن - الذى يحرسه الله - فتيتش ولا تقرب ولا اعمال حراسة . كان الامر يدرب الجنود قليلا . من حين إلى حين ، بدافع من نفسه . إلا أنه لم يكن قد توصل بعد إلى ان يعلم جميع جنوده تمييز اليد اليسرى من اليد اليمنى . برغم ان بعضهم كان يصلب قبل ان يدور حتى لا يخطئ ! .. وكان شفايرين يملك عددا من الكتب الفرنسية ، فاخذت اقرا .. وما لبثت أن شعرت بميل إلى الأدب ، فكانت اقضى الصباح اترجم ، وانظم في بعض الاحيان شعرا . وكنت في كل الايام - تقريبا - اتناول طعام الغداء على مائدة الامر ، واقضى في بيته بقية النهار . وكان الأب « جراسيم » يأتى لقضاء السهرة في بعض الاحيان ، تصحبه زوجته « آكولينيا بافيلوفنا » ، وهى اول من كان يحمل انباء المنطقة وبذيعها . وطبيعى اننى كنت اتقى « الكسى ايفانوفتش شفايرين » في كل يوم ، إلا اننى صرت ازداد برما بحديثه ، يوما بعد يوم . واصبحت ارى سخرياته من امرة الامر في غير محلها ، لا سيما ملاحظاته الهائزئة بصدد « ماريا ايفانوفنا » .. ولم يكن في الحصن غير هذا المجتمع ، إلا اننى كنت لا اطعم في احسن منه .

\*\*\*

ولم يثر « الباشكير » ، برغم نبوءات القائد اللواء . ركان الهدوء مهيمن على المنطقة بأسرها ، إلا ان السلام قد انقطع فجأة بخصومة داخلية :

ذكرت لكم شيئا عن مشاغلي ايفانوفنا ان هذه



القرزمات (١) كانت مرضية في حينها ، حتى ان الكسندر بتروفتش سوماروكوف قد تحدث عنها — بعد بضع سنين — في كثير من الثناء والتقريظ . واستطعت — في ذات يوم — ان اؤلف نشيدا ، وكنت راضيا عنه كل الرضى . . وانتم تعلمون ان الشعراء يبحثون دائما عن مستمع ينشدهونه قصائدهم ، زاعمين انهم يسألونه بعض النصائح . وهكذا نسخت قصيدتي ، وجمعتها إلى شفايرين ، وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع في هذا الحصن ان يقدر مزايا هذا النوع من الإنتاج ، ثم قرأتها عليه ، بعد تهديد متلب :

« اود . . يا حبيبتي ان انسأك . . بالابتعاد عنك ،

« والا اعود أفكر فيك ،

« ان اكون حرا ، ولكن . .

« يا لهاتين العينين ، تطلان على . . في كل لحظة ،

« فاذا روى مضطربة . . لا يعرف السلام إليها سبيلا .

« لبتك تعلمين ما اعانى من برح . .

« آه يا ماشا ! . . رنقا بى ،

« يا من اسرت قلبى ١ » .

— ما رأيك ؟

طرحت على شفايرين هذا السؤال ، وانا انتظر الثناء . .

(١) يبدو ان المقصود بهذا المصطلح « المحاولات » او « المخالات » .

على أنه شيء من حقى . إلا ان شفايرين ، وهو السمع المتساهل في العادة ، أعلن بلهجة قاطعة — على أسف منى — ان القصيدة لا قيمة لها البتة . فقلت ، وانا أخفى انزعاجى : « لماذا ؟ » . . قال : « لان مثل هذه الأشعار خليقة بأستاذى المرحوم فاسيلى كيريليتش تردياكوفسكى (١) ، وهى تذكرنى بشائيساته الغزلية » .

ثم تناول الدفتر من يدي ، واخذ يجرح كل قصيدة من قصائدى ، ويسخر منها سخرا لاذعا ، لا رحمة فيه ولا شفقة . فلم استطع ان اكظم غيظى ، فانتزعت الدفتر من يده ، معلنا اننى لن أطلعها في حياتى على شيء مما انظم . . واضحكه هذا التهديد . فقال : « سنرى هل تلتزم هذا الكلام ! . . إن حاجة الشعراء إلى مستمع : كحاجة ابغان كوزميتش إلى إبريق من « الفودكا » قبل الطعام . ثم من هى ماشا هذه التى تبوح لها بغرامك ، وتبثها شجونك والامك ؟ لعلها ماريا ابغاثوفنا ؟ » .

فاجبت وانا اقطب حاجبى : « هذا لا يعنيك ! . . ما طلبت رأيك ، ولا سألوك ان تحزر من هى ماشا . . هذه ! » . فقال وقد ازداد حنقى :

— على رسلك ايها الشاعر الطموح ، والعاشق المتواضع ! . . إليك هذه النصيحة بسوقها صديق مخلص : إذا أردت ان تظهر بها ، فتوصل بغير القصائد !

— ماذا تعنى بهذا أيها السيد ؟ . اوضح !

— بكل سرور ! . اعنى أنك إذا اشتبهت أن سزورك  
« ماشا ميرونوفا » عند الغيب ، فإن قرطاً تهديه إليها ، أنجع  
في ذلك من تصائدك المغزلية الرقيقة !  
وعلى الدم في عروقي . . وسألته ، وأنا لا أكاد أستطيع  
كظم غيظي : « لماذا ترى فيها هذا الرأي ؟ » . فأجاب وهو  
يبتسم ابتسامة خبيثة : « لأننى أصفها بالتجربة ! » .  
تصرخت في حق شديد : « كاذب . . وقع ! » .  
فامتنع لون شفاهين . وقال وهو يشد على ذراعى : « إن  
يبر هذا الأمر بسلام . اتنى ادعوك إلى الميازة ، فأرجو أن  
تستجيب للدعوة ! » .

— كما تشاء ، وفى أى وقت تشاء !

قلت ذلك وأنا أشعر بسرور كبير . . كنت على استعداد  
— فى هذه اللحظة — لأن أرمقه إرباً .

\*\*\*

ومضيت فوراً إلى « أيفان اجفانتش » ، فראيت بيده ابرة ،  
لأن الأمر كلفه بنظم حبات الكفاة « مئونة للشئاء (١) » . فقال  
حين رآنى : « آه ، بشرو اندريفتش ! . . أهلاً وسهلاً ! هل



ثم تناول الدفتر من يدي « وأخذ يجرع كل قصيدته  
من قصائدي ، ويستخر منها سخرًا لا ذماً ، لا رحمة فيه . .

(١) الكفاة ثبات فطري يبقيه عيش . . . . .  
— كما يفعل بالبابايا عتونا — ليستعمل في

استطيع ان اعرف سبب تشريفك لىاى بالزيارة ؟ » . نذكرت له . بوضع كلمات - اننى تشاجرت منذ هنيهة مع الكسى ايفانتش ، واننى ارجوه ان يكون ، هو ايفان اجناتش . شاهدى فى المبارزة . فاصفى الى كلامى بالتباه شديد ، وهو بحق فى بعينه الوحيدة . وقال مبهجيا :

- تريد ان تقول إنك تنوى ان تغمد سيفك فى جسمه ، وانك تريد ان احضر هذا بصفى شاهدا لا . . . أمدا ما اردت ان تقوله ، إن جاز لى ان اطرح هذا السؤال ؟  
- نعم .

- اسمع يا بئرو اندريفتش ، ما هذا الكلام الفارغ . . . لقد تشاجرت مع الكسى ايفانتش ، فيالها من فاجعة . . . إن الألفاظ يا بنى لا تقفل . . . إن كان قد شتمك فاشتمه ! . . . وإن كان قد صنمك على وجهك ، فاسمعه على آتنيه بنتى وثلاث . . . ثم تفترقان . وواجبنا نحن بعد ذلك ان نصلح بينكما . . . اما ان يقتل المرء قريبه « فالله لا ! . . » ثم ان الأمر يهون إذا انتصرت انت . اننى لا احب « الكسى ايفانتش » هذا ، عفا الله عنه . . . ولكن اية فاجعة تمنى بها ، إذا انتصر هو عليك ، وأغمد سيفه فيك ؟ . . . من ذا الذى يكون قد غرر به عندئذ ؟ إن جاز لى ان أسال هذا السؤال ؟

ولم يستطع منطق الملازم الطبيب ان يززع ما عزم عليه ، فاصررت على رأى . وقال ايفان اجناتش : « لك يا تشاء . . . افعل ما يبدو لك . . . ولكن ما حاجتك الى شاهد ؟ . . . فميفيدك هذا ؟ . . . يا لها من معركة عجيبة ! شيء جميل !

. . . إن جاز لى ان أقول ذلك . . . لقد رايت معارك أخرى كثيرة ، بحمد الله . . . تقابلت مع الأتراك والسويديين ! » .

وحاولت ان أوضح له وظائف الشاهد بكل الوسائل ، إلا ان ايفان اجناتش لم يستطع ان يفهمنى . . . وقال أخيرا : « إذا اردت ان تدخل فى هذا الأمر ، فلعل الأحسن ان امضى إلى ايفان كوزميتش ، اخبره بان ثمة أمرا مخالفا لمصالح الدولة يدبر فى هذا المكان ، ولا شك ان حضرة الأمر سيقبض عندئذ ما ينبغى اتخاذه من إجراءات » .

فخفت ، وتوسلت إليه الا يخبر الأمر بذلك . ولم استطع إقناعه إلا فى كثير من العناء ، فقطع على نفسه عهدا بالا يخبر الأمر ، وقررت ان ادمه وشانه .

وقضيت المسهرة ، على عادتى ، فى بيت الأمر ، حتى لا اثير اى ارتياب ، وحتى اتعاشى الأسئلة الفاضحة . . . وحاولت ان اظهر مرحا طليقا ، ولكنى أعترف باننى لم استطع أبدا ان اكون هادئا ، ذلك الهدوء الذى يعتر به معظم الذين يكونون فى مثل حالتى .

وكلت فى ذلك المساء انيض حبا وحنانا . واعجبتنى « ماريا ايفانوفنا » أكثر من أى وقت مضى . ثم تصورت ان لغاضبا هذا المساء قد يكون اللقاء الأخير ، فاصفى عليها هذا كثيرا من الفتنة المؤثرة . وجاء شفايرين ، فانتحيت به جانبا ابلغه نتائج حديثى مع ايفان اجناتش ، فقال فى جناف وخشونة : « ما حاجتنا إلى شهود . . . سنستشهد عن الأسيود » .

« يا ابنة الضابط الرئيس .. »

« لا تتجولي عند منتصف الليل ! »

« فلم يرق هذا لبترو اندريفتش - ففضب واحمر وجهه .  
إلا أنه لم يلبث أن فهم أن كل إنسان حر في أن يغنى ما يحلو  
له غناؤه . ووقف الأمر عند هذا الحد ! » .

وكادت وقاحة شفايرين أن تخرجني عن نجلدي وهدونى .  
ولكن احدا غرى لم يفهم غزاته الخبيثة ، أو - على الأقل -  
لم ينتبه إليها أحد . وانتقل الحديث من الأغاني إلى  
القضاء بوجه عام . فذكر الأمر أنهم جميعا اناس طائشون  
سكران ، ونصحنى باسم المداقة أن ادع الشعر ، فالشعر  
لا يتفق مع الخدمة العسكرية ولا يفضى إلى خير .

وكان وجود شفايرين ثقيلًا على نفسى لا يطاق ، فاستأذنت  
الأمر وأسرت به بالذهاب . وعدت إلى منزلى « متفقدت سيفى »  
ونحمت حذو ، ثم نمت بعد أن أمرت سافيليتش بأن  
يوقظنى قبل الساعة السابعة .

\*\*\*

وفى الساعة المعينة من الغداة ، كنت وراء البىادر ، وما هى  
إلا برهة وجيزة حتى ظهر شفايرين . فقال : « لنسرع ،  
قبل أن يأتى أحد ! » .

فخلع كل منا بدلته العسكرية . وما كدنا ننتقى سفيننا  
حتى رأينا ايفان اجناتتش يظهر من وراء أحد النوافذ ،  
يصحبه خمسة جنود من مشجوى العزيم . ثم بصرنا بأن

حزما امرتا ، واتفقنا على أن تكون المباراة فى صباح الغد .  
قبل الساعة السابعة ، وراء البىادر غير بعيد عن الحصن .  
وقد اصطلعنا أثناء الحديث هيئة ودية جدا ، حتى أن  
« ايفان اجناتتش » - حين رأانا - لم يملك أن يمنع نفسه عن  
التهافت مسرورا .. وقال وقد ناضى وجهه بشرا : « مرحبى !  
لنصوية سيئة خير من مباراة حسنة ! .. ما فائدة الشرف  
حين يبقّر البطن ! » .

فكالت الأمرة وهى تجسر الخرائط إلى ركن من الغرفه :  
« ماذا تقول يا ايفان اجناتتش ! .. إننى لم افهم » .

فلما رأتى ايفان اجناتتش اجهم وجهى ، تذكر وعده .  
فاضطرب ولم يعرف بم يجيب . فهب شفايرين إلى نجدته .  
فأثالا : « إن ايفان اجناتتش يهشنا على المصالحة » .

ومع من تشاجرت يا بنى ؟

لقد تشاجرتا - أنا وبترو اندريفتش - مناجرة  
عنفية .

لماذا ؟

أوه ، سبب قافه ، بسبب أغنية يا غاسيليسا  
يججوروفنا !

يا له من سبب وجيه للمشاجرة ! .. أغنية ! .. وكيف  
حدث ذلك !

لقد ألف بترو اندريفتش منذ مدة قصيرة أغنية ،  
وانشدنى إياها هذا الصباح ، فآخذت أنا انفدن أغبتي  
المفضلة :

ننبحه إلى منزل الأمر . كان لابد لنا من أن نطيع ، فسرنا بحيط بنا الجنود ، ويتقدمنا ايفسان اجناتشيسير بخطى الظاهر ، وقد اكتسى وجهه هيئة جادة وقور .

ووصلنا إلى بيت الأمر . ففتح ايفسان اجناتشيسير الباب ، وقال بصوت فخم : « ها هما ! » فأقبلت علينا فاسيليسا بيجوروفنا تقول : « يا إلهي ! .. ما هذا ؟ جريمة قتل في حصننا ؟ .. ايفسان كوزميتش ، اسجنهما حالا ! .. بترو اندريفتش ، الكسى ايفانتشيسير ، إلى بسيفيكما فوراً ! .. هلت سيفك . هلت سيفك ! .. بالاشكا ، خذى هذين السيفين إلى المستودع . بترو اندريفتش ، ما كنت أتوقع منك هذا ! .. انه يلبق بالكسى ايفانتشيسير ، الذي طرد من الحرس لارتكابه جريمة قتل ، وهو ملحد لا يؤمن بالله . .. ولكن انت ؟ .. هل تريد أن تقتلى اثره ؟ »

وبدا على ايفسان كوزميتش انه يوافق زوجته كل الموافقة . إذ قال : « فاسيليسا بيجوروفنا على حق ! .. إن القانون العسكري يمنع المبارزات بمعاباتا . .. وفي أثناء ذلك ، كانت بالاشكا قد أخذت السيفين وحملتهما إلى المستودع . ولم استطع أن أحبس ضحكي ، ألا أن شفايرين احتفظ بجسده ، وقال يخاطب الأميرة في جناف : « رغم ما أكنه لك من احترام ، فائتي لا أستطيع أن أعنى نفسي من لفت نظرك إلى تلك مخطئة في الاهتمام بهذا الأمر . .. ودعى ايفسان كوزميتش يتصرفاً على النحو الذي يراه ، فالتضحية لا تعنى أحدا غيره ، وليس لأحد أن يتدخل فيها سواء ! » .

— ولكك تعلم يا بني أن الزوج والزوجة جسم واحد . وروح واحد . .. وأنت يا ايفسان كوزميتش . ماذا تنتظر ؟ .. هيا اسجن كلا منهما في مكان ، ولبصوما — إلا عن الخبز والماء — إلى أن يثوبا إلى رشدتهما ، فيفرض عليهما الأب جراسيم الكسارة ، فبطلبا عفو الله ومغفرة البشر !

لم يعرف ايفسان كوزميتش بم يجب . .. وكانت « ماريا ايلانوفنا » شاحبة الوجه جدا . .. ثم راق الجو شيئاً بعد شيء . .. وهدأت الأمرة ، وأجبرتنا على أن نتمائق ، وردت إلينا بالاشكا السيفين ، نخرجنا من بيت الأمر متصلحين في الظاهر . وصحبنا ايفسان اجناتشيسير . فقلت له بصوت خشن : « الاستحي ؟ .. تشي بنا إلى الأمر ، بعد أن قطعت على نفسك عهداً بأن تمسكت » . « فأجاب قائلاً : « أقسم أنني لم أقتل لايفسان كوزميتش شيئاً ، ولكن فاسيليسا بيجوروفنا أكرهني إكراهها على مكاشفتها بالأمر ، وهي التي اتخذت هذه الإجراءات دون أن ترجع إلى الأمر . على أنني أحب الله أن الأمر انتهى على هذا النحو ! » .

قال هذا ، ثم دخل إلى بيته ، وتركنا وحدنا . فقلت لشفايرين : « لا يمكن أن يبق الأمر عند هذا الحد ! » . فأجاب : « طبعاً . .. ستدفع من دمك ثمن الإهانة التي وجهتها إلى . .. ولكن أغلب الظن أنهم سيراقيونا ، فلا بد أن نخادعهم بضمة أيلم . عم مساء ! » .

وافترقنا كأن لم يحدث شيء . .. فلما عدت إلى بيت الأمر ، جلست على علاتي إلى جانب « ماريا ايلانوفنا » ولم يكن



ايفان كوزميتش في البيت ، وكانت غابيليسا يججوروفنا مشغولة بأعمال المنزل : فلاحظنا نتحدث بصوت خافت ، نلأمنى « ماريا ايفانوفنا » — لوما رقيقا — على المخاوف التي — بيتها للجميع بنشأجرى مع شغابرين . وقالت : « كذا يفمى على حين بلغنى انكما تنويان المباراة . ما أعجب الرجال ، انهم مستعدون — بسبب كلمة قد ينسونها بعد أسبوع — لأن يقتل بعضهم بعضا . فيضجوا بحياتهم . وبسعادة أولئك الذين . . على أننى واثقة من أنك لست الذى أثار المشاجرة . . أعتقد ان الكسى ايفانتش هو المذنب ! » .

— لمساذا تظنين هذا يا ماريا ايفانوفنا ؟

— لأنه . . لا يكف عن الهزء والسخرية . . إننى لا أحب الكسى ايفانتش . . اننى أكرهه . والغريب أننى أخشى دائما ألا أحجبه . . أنه ليثيرنى إلا أنال إعجابه !

— وهل نعتقدين يا ماريا ايفانوفنا . انك تعجيبينه ؟

قالت : « أعتقد أننى أحجبه » . فسألتها : « من أين جاءك هذا الاعتقاد ؟ » .

— لأنه طلب يدى .

— طلب يدك ؟ متى ؟

— فى السنة الماضية . قبل وصولك بشهرين . .

— ورفضت ؟

— كما ترى ! . . صحيح ان الكسى ايفانتش رجل نكى : ولكنه ينتمى إلى أسرة محترمة ، ويملك ثروة طائلة . ولكن يكفى أن أتصور أننى سأقبله امام الناس فى الكنيسة ، حتى أقول : لا ، لا . . مستحيل ، مستحيل !

هكذا فتحت كلمت ماريا ايفانوفنا عيني ، ووضحت لى كثيرا من الامور . فهبت لماذا بصر شغابرين على الحط من شأنها فى مثل هذا الخبث وهذه الوثاقة . . لعله أدرك ما بيننا من عاطفة متبادلة . . أكان يريد أن يفرق بيننا ؟ . . وبنت لى الكلمات — القى آثار المشاجرة — أكثر دناءة ، لأننى أصبحت لا أرى فيها مجرد سخرية غظة غليظة . بل تهمة باطلة عن سابق تصور وتصميم . وازدادت رغبتي فى معاقبة هذا الوقع ، فأخذت أنتظر الفرصة المناسبة بصبر فارغ .

ولم يطل انتظارى . . ففى الغداة ، بينما كنت أولف قصيدة رثائية : واقضم قللى باحثا عن ثأنية ، قرع شغابرين نافذة غرفتى ، فوضعت القلم ، وحملت سيفى ، وأدركته فى الشارع . قال : « علام الانتظار ؟ ليس يراقبنا أحد . . لنهبط إلى النهر ، فلن يزعمنا أحد هناك ! » . فسرت وراءه . . ويعد أن هبطنا منحدرًا وعرا ، وقفنا على ضفة النهر ، واستلطنا السلاح . وكان شغابرين

أقوى منه واشجع ، واستعدت من دروس في المسابقة (١) :  
أعطاني إياها مسيو « بويريه » الذي كان في سابق أيامه  
جنديا . ولم يتوقع شعابرين أن أكون خصما خطرا إلى هذا  
الحد .

وظللنا نبارز مدة طويلة ، دون أن يصيب أحد منا الآخر  
بأذى . فلما لاحظت أخيرا أنه بدأ يضعف ، أخذت أهاجيه  
بعنف ، حتى صار على شفا النهر ، فإذا أنا أسمع صوتا  
يناديني فجأة بصوت عال . فالتفت فرأيت سافيليتش يمدو  
هابطا المنحدر . . وفي هذه اللحظة . أحسست بأن قوى في  
الكتف الأيمن . ثم سقطت مفشيا على !



- ٥ -

## وأخيرا . . عرفت الحب !

« إيه أيتها الصبية الجميلة !

« لا تتزوجي قبل الأوان . .

« استنصحي أباك وأمك . . والأسرة كلها !

« كوني عاقلة ، واجمعي مهرا . .

« قبل كل شيء ! » — أغنية شعبية

وحين افقت من إغمائي ، ظلت مدة طويلة لا أستطيع  
أن أستجمع ذكرياتي ، ولا أن أفهم ما حدث لي . . رأيتني  
مضطجعا في غرفة لا أعرفها . وكنت أشعر بضعف شديد .  
ورأيت سافيليتش واقفا أمامي وقد أمسك بيده شمعة .  
ورأيت أحد الناس بك الأضدة التي تشد كتفي وصدري ،  
يفكها في كثير من الحفر . وانضحت أفكارى شيئا بعد شيء ،  
تفكرت المبارزة ، وأدركت أنني جرحت . وفي هذه اللحظة  
سمعت الباب يفتح . . ودمدم صوت يقول : « كيف حاله  
الآن ؟ » .

وارتجفت حين سمعت هذا الصوت . . وأجاب سافيليتش  
وهو يطلق من صدره زفرة حارة : « ما زال كما كان . . إنه  
ناقد وعيه منذ خمسة أيام » .

وحاولت أن التفت ، ولكني لم أستطع . فقلت في جهد  
ومثقة : « أين أنا ؟ . . من هنا ؟ » . . فاستقرمت جارية أيقاني فذا

(١) بقصد المبارزة بالسيف .

من السرير : وانحنيت على تسالني : « كيف ترى نفسك الآن » . فاجبت بصوت ضعيف : « الحمد لله ! .. اهذه انت يا ماريا ايفانوفنا ، قولى لى ! .. » .

ولم استطع أن اتم كلامى ، مهتف سافيليتش . وقد ظهرت في وجهه آيات الفرح : « عاد إليه شعوره - عاد إليه شعوره .. حيدا لك يارب ، آه ! .. يا بترو اندريفتش ، لشد ما اخفنى .. خبسة ايام متواصلة ! .. » .

واعتقدت ماريا ايفانوفنا ان عليها أن تقطع حساباته ، فقالت متجهة إلى سافيليتش : « لا تكلمه كثيرا يا سافيليتش . إنه ما زال ضعيفا جدا ! » . ثم خرجت وهى تطلق الباب لطلب .

وزحمت راسي الامكار .. لقد كنت إذن في منزل الامر ، وجاءت ماريا ايفانوفنا بعودتى ! .. وارتدت ان اطرخ على سافيليتش بعض الاسئلة . إلا ان المجوز اخذ يهز راسه ، وسد أذنيه ، فاعضمت عيني أسفا . وما لبثت أن نمت . فلما استيقظت ، ناديت سافيليتش . ولكن ماريا ايفانوفنا هى التى جاءت تلبى ندائى . وحياتى صوتها الملائكى .. ولا أستطيع ان اعبر عن شعور الفرح الذى تملكنى في هذه اللحظة . وتناولت يدها ابلاها بدموع الحزن ، فلم تسحب ماريا يدها . وفجأة لامست شفتاها خذى فاحسست قبلتها غضة دائنة بها .. وسرت في جسمى كله رعدة .. وقلت لها :



— عزيزتى ماريا ايفانوفنا . يا ذات القلب النبيل .. هلا

وافقت على ان تكونى زوجتى « فلنكون أسعد إنسان على وجه الأرض ! »

وكأنها ثابت إلى رشدنا فقالت وهى تسحب يدها : « كن هادئا ، ارجوك ! .. انك ما زلت في خطر . وقد ينكا جرحك ، نحافظ على نفسك ، ولو من أجلى ! » .. قالت ذلك ، ثم خرجت . وتركتنى في نوع من النشوة أشبه بالوجد . احسنتى السعادة .. إنها تحبني . ستكون زوجتى ! .. وملكنت على هذه الفكرة نفسى كلها !

\*\*\*

اخذت صفحتى تتحسن منذ تلك اللحظة . وكان حلاق الفوج هو الذى يقوم على معالجتى ، فلم يكن في الحصن طبيب آخر غيره . واحد الله على أنه لم يعقد الأمور .. على أن شبابى قد عجل شفائى . وكانت أسرة الامر كلها تعنى بى . واصبحت « ماريا ايفانوفنا » لا تتركنى ابدا . وكان طبيعيا أن انتهر اول فرصة مناسبة ، فافانحتها في الامر مرة أخرى ، طالبا يدها .. وهكذا نعلت ، فاصفت ماريا ايفانوفنا إلى كلامى في صبر اشد من صبرى ، ثم اعترفت لى بحبيها خون موارية ، وأضافت إلى ذلك ان أبويها يسرهما أن يريها سعيدة .. ثم اردفت تقول : « ولكن فكر في الامر .. الا تعتقد ان ابوك قد يعارضان ؟ » .

واطرقت افكر .. ما كنت أشك أبدا في أن أمى توافق ، ولكننى تصورت — وأنا أعرف طبع  — أن حبي لن يؤثر فيه كل  ..

نزوات الشباب . واعتزنت لماريا ايفانوفنا بهذا في صراحة تامة ، وقررت - مع ذلك - أن اكتب إلى أبي طالبا أن يوافق على زواجي وأن يباركه ، مستعينا في ذلك بكل ما اوتيته من بلاغة وقوة حجة ، واملت « ماريا ايفانوفنا » على عمه الرسالة ، فوجدتها مؤثرة بمتعة ، حتى أنها لم تشكل في أن أبي سيوافق .. لقد استسلمت للعاطفة الرقيقة التي بليها عليها قلبها ، ولكل ما في الشباب والحب من ثقة ورجاء !

وتصالحت مع شغابين منذ الايام الاولى من شبانتي . ووبخني ايفان كوزميتش على اقتراحي ذنب المبارزة ، قائلا : « كان ينبغي أن اسجفك يا بترو اندريفيتش ، لولا أنك قد عوقبت العقاب الذي تستحقه . أما الكسي ايفانيتش فهو الآن سجين في مخزن المؤنة ، وسيفيه محبوز لدى فاسيليسا بيجوروفنا ، عسى أن يفكر ويندم على ما اقترمت يده ! » .

وكنت أسعد من أن احمل لخصمي حثدا أو ضغينة . تعشمت له ، ووافق الأمر الطيب القلب ، بعد أن استشار زوجته ، على أن يطلق سراجه . وجاء شغابين بعبر لي عن صديق أسفه على ما وقع بيننا ، واعترف بأنه هو المخطيء . وسألني أن انسى الماضي . وأنا أمرؤ غير حقود أبدا ، تغفرت له المشاجرة والجرح جيبعا .. غفرت لها مادقا كل الصدق ، لأنني عزوت الكلمات السيئة التي قالها في حق « ماريا ايفانوفنا » ، إلى ما يشعر به العاشق من حقد حين يصد ، وانتهلت له الأعذار في كرم وسخاء !

وما لبثت أن عوفيت حتى أصبحت قادرا على أن أعود إلى بيتي . ورحت أنتظر جواب الرسالة بصبر فارغ ، دون أن

أجرؤ على كبير رجاء ، محاولا أن اخفق ما يقوم في نفسي من تطير حزين . ولم أكن قد صارحت « فاسيليسا بيجوروفنا » وزوجها في الأمر ، إلا أن طلبى ما كان له أن يفاجئهما ، لأننا - أنا وماريا - لم نكن نخفي عنهما ، وكنا على يقين من موافقتهما قبل أن نطلبها .

وفي ذات صباح ، دخل على سافيليتش يحمل رسالة بيده « فسارعت اتناولها بنوع من الرعب . ورايت العنوان مكتوبا بخط أبي ، فتهايت لأمر خطير .. ذلك أن أمي هي التي تكتب إلى عادة ، أما أبي فيكتفى بإضافة بضعة أسطر في آخر الصفحة .. وظللت مدة طويلة - أقرأ العنوان الفخم ، دون أن أجرؤ على فم الرسالة :

« إلى ابني بترو اندريفيتش جريفيتش »

في حصن بيلوجورسكا - إقليم اورنبورج » .

كنت أحاول أن أرى - في الخط - الحالة النفسية التي كان أبي فيها حين كتب هذا العنوان . وقررت أخيرا أن انض الرسالة .. ثم أيقنت منذ قراءة الأسطر الأولى أن الحال على أسوأ ما يكون . إليكم ما قرأته :

« وصلتنا رسالتك في الخامس عشر من الشهر الحالي ، وفيها تطلب إلينا الموافقة على زواجك بماريا بنت ايفان ميرونوف ، ومباركة هذا الزواج . فاعلم أنني أنوى أن أمنع عنك الموافقة والمباركة معا .. بل أضيف إلى ذلك أنني نكرت في أن أقبض عليك - برغم أنك في رتبة ضابط - وأن أعطيك

الحرس الذى يعطى لمصيبة مفار . ذلك لك برهنت نصلا على أنك ما زلت غير أهل لحمل السيف الذى عهد به إليك لتدافع عن الوطن . لا تقتل في مبارزة مع أناس ناهيين مثلك . ساكتب بلا إبطاء إلى أندريه كارلوفتش اطلب إليه أن ينقلك من الحصن إلى أبعد مكان ممكن ، عسى أن تنسى هنالك حماقاتك وسخافاتك . حين علمت أمك بنبأ المبارزة والجرح ، سقطت مريضة من الحزن والكرب ولزمت فراشها . كيف أنت الآن ؟ . أسأل الله أن يريك إلى الصراط المستقيم ، وإن كنت لا أجرؤ على أن استغفرك لك . أبوك : « ج . »

\*\*\*

ايقظت هذه الرسالة في نفسى جميع أنواع العواطف : المتنى هذه العبارات القاسية يرسلها أبى في سخاء ، وبدا لى هذا الاحترار الذى يشتمل عليه كلامه عن « ماريا ايفانوفنا » استهتارا بها لا تستحقه . وصعقت حين تصورت أننى سأترك الحصن في القريب ، واحزننى مرض أمى أكثر من أى شيء آخر ، وحدثت على سافيليتش حقدا قاتلا ، لأنه هو الذى أبلغ أبوى نبأ المبارزة من غير شك . فضيت أجزاز إليه الفرقة الضيقة ، حتى وقفت أمامه ، فالتقيت عليه نظرة مهددة متوعدة . وقلت : « لم يتركك أننى جرحت وظللت شهرا كاملا على شفا القبر بسبك . فأردت أيضا أن تقتل أمى ! » .

وصعق سافيليتش ذعرا ورجبا ، وادرك أن يتفجر متنجبا ، وقال : « ماذا تقول يا سيدى ؟ . أستبى إذن

جرحت ؟ . يعلم الله أننى كنت أركض لأحميك ، معرضا صدى لسيف الكسى ايفانتش . ولم يمتنى عن ذلك إلا الشيوخوخة للعبث . ثم ماذا صنعت لأمك ؟ » .

— ماذا صنعت لها ؟ . من ذا الذى طلب إليك أن تكتب وأشياى ؟ . من الذى طلب إليك أن تتجسس على ؟

فقال سافيليتش وهو يبكى بكاء سخيا : « أنا وشيت بك ؟ . يا إلهى ! . ولكن اقرا ماذا كتب إلى سيدى والدك ! . اقرا فتعلم هل وشيت بك ! » . قال هذا ، واستل من جيبه رسالة . فقرأ لى ما يلى :

« الا نستحى أيها الكلب الهرم ؟ . لماذا لم تكتب إلى شينا عن بترو اندريفتش ، مع أننى أمرتك بأن تنقل إلى أنباءه ؟ . إن الغرباء هم الذين يتولون إبلاغى حماقاته . اهكذا تقوم بأجابتك ، وتنفذ أوامر أسياذك ؟ . عقابا لك على أنك أخفيت الحقيقة ، وسهلت حماقة سيدك الشاب سارسلك ترى الخنازير ، أيها الكلب الخرف ! . إننى أمرتك بأن تكتب إلى ، نور وصول هذه الرسالة إليك — دون إبطاء — بانباء صحته . لقد قبل لى إنه شفى . أذكر لى أين كانت الإصابة ، وهل عولج الجرح معالجة كافية ! » .

كان واضحا إذن أن سافيليتش ليس ملوما ، وإن ظفونى في غير محلها . فسألته أن يغفر لى هذه الإهانة التى ججهت إليه دون أن يستحقها ، إلا أن كلامى لم يستطع أن يعزبه . وقال : « اهكذا إذن ؟ . اهكذا يكلمنى سيادى ؟ . كلب

السنتر بوشكين

هرم ، راعي خنازير !! .. وأنا السبب في جرحك ..؟ كلا يا عزيزي ، لست أنا السبب .. السبب هو ذلك « المسيو » اللعين الذي علمك هز السيوف والركل بالأرجل ، كان ذلك هو الوسيلة التي يحفظ بها الإنسان نفسه من الأذى ..! اكان ضروريا استئجار هذا « المسيو » وتبديد المال سدى ١٨ » .

نرى من ذا الذي كلف نفسه — إذن — عناء إطلاع أبي على سلوكي ؟ .. أهو القائد اللواء ..؟ ولكن القائد لا يبدو مهتما بشئوني ، ثم إن « أيفان كوزميتش » لم ير من الضروري أن يقدم له تقريرا عن هذه المأزعة . ورحلت أخمن وأرجم .. وانصبت شبهاتي على شفايرين . إنه الشخص الوحيد الذي قد يستفيد من الوشاية بي ، إذ يترقب عليها أن أترك الحصن وانفصل عن أسرة الأمر .

ومضيت إلى « ماريا ايفانوفنا » ، لاطلعتها على كل شيء ، فقلت لها على درج الباب . وقالت حين رافقتي : « ماذا حدث لك ؟ إنك ممتقع اللون جدا » .. فقلت وأنا أمد لها رسالة أبي : « لقد انتهى كل شيء » . فامتقع لونها هي الأخرى . حتى إذا فرغت من قراءة الرسالة مدتني إلى بيد مرتجفة وهي تقول : « هذه إرادة القدر .. إن أبوك لا يحباني . لتكون مشيئة الله . إنه أعلم بما نحن في حاجة إليه . ما دام الأمر كذلك » فكان سعيدا أنت على الأقل ! » .

فنهفت وأنا أمسك يدها : « لن يكون هذا أبدا . إنك تحبيني ، وأنا مستعد لكل شيء . لنذهب إلى أبوك نرتمي



فنهفت وأنا أمسك يدها « لن يكون هذا أبدا »

إنك تحبيني ، وأنا مستعد لكل شيء

على اقدامهما . إنهما من الناس البسطاء ، لا من الناس المزهوين القاسية قلوبهم . وسيوافقان على رواجنا وبياركانه . فتزوج .. وأنا والى من انسا نستطيع في المستقبل ان نلين إرادة ابى . وسنكون أمى معنا ندافع عنا ، فيفقر لنا الخروج على إرادته ! »

فاجابت ماريا : « كلا يا بترو اندريفتش .. لن اتزوجك قبل ان نحصل على مباركة أبويك . وإلا كان الشقاء حظنا من الحياة ! .. لنخضع لمشيئة الله . وإذا وجدت خطيبة أخرى ، إذا أحببت فتاة أخرى ، سألت الله ان يمدك بعمونه . يا بترو اندريفتش ، ابا انا ، نامضى .. في سبيلك ! .. »

وتفجرت الدموع من عينيها . وتركتنى وحدى .. وأردت ان أبعثها إلى داخل البيت . ولكنى شعرت اننى في حالة لا أستطيع معها ان املك زمام نفسى ، فرجعت إلى بيتى .

وفيما أنا غارق في أحلام بعيدة . إذا بسافيليتش يقطع على ناملتى وهو يمد إلى ورقة مطرزة بخطسه ، ويقول : « خذ يا سيدى وانظر بنفسك هل أنا والى . وهل حاولت ان افسد الجو بين سيدى الشباب وأبيه ! » فتناولت الورقة التى مدها إلى . وإذا بها جواب على الرسالة التى تلقاها من أبى .

وها أنا ذا انقلها هنا كلمة كلمة :

« سيدى اندريه بتروفتش : أبانا الرجيم :

« تلقيت بحبايبكم اللطيف ، الذى حلا لكم فيه ان نبذو اسقياكم من خاتمكم ، والذى ثلوموننى فيه على اننى لا أطيع

اسيادى . لت بالكذب الهرم ، يا سيدى . وإنما انا خادمكم الأمين . اننى أنفذ أوامر اسيادى . ولقد خدمتكم دائما في حماسة إلى اليوم الذى أبغض فيه شعري تماما . ولئن لم اكتب إليكم شيئا بصدد جرح بترو اندريفتش . فما ذلك إلا لأننى لم أشأ ان أخيفكم فيها لا فائدة فيه . ولقد سمعت ان مولاتى انوفيتيا فاسيليتش قد بلغت من الجزع حدا الزمها فرائشها .

إننى ادعو الله ان يرد إليها عافيتها . لقد جرح بترو اندريفتش في صدره . تحت عظم الكتف الأيمن على وجه الدقة ، وكان عمق الجرح فركوكا ونصف فركوكا (١) .. وقد نقلناه من ضفة النهر إلى منزل الأمر . حيث عالجه هنالك سسيفيان بامورونوف ، حلاق المنطقة . وأن بترو اندريفتش الآن - بحمد الله - في تمام عافيته . ولا انقل إليكم من أخباره إلا الحسن الطمئن . يقال إن رؤساءه راضون عنه ، وأن فاسيليتسا ييجورفنا تعامله كأنه ابنها . ولئن وقع له هذا الحادث . فإن لكل جواد كبرياء ، والأخطاء الماضية لا تذهب شرف الشجاع . لقد حلا لكم ان تكتبوا انكم سترسلوننى ارمى الخنازير . انكم يا سيدى أحرار في عبيدكم تنصرفون فيهم كما تشاءون . ولا بسعنى في الختام إلا ان أحبيكم ذليلا .

خادمكم الأمين « أرييب فيليف »

لم أستطع ان امنع نفسى عن الابتسام وأنا أقرأ رسالة المجوز الطيب . وكنت لا اشعر ان بى من القوة ما يمكننى من



الإجابة بنفسى ، فبدت لى رسالة مسافيليتشى كافية لنظمين  
ألى .

وتغير حالى منذ ذلك اليوم تغيرا كبيرا ، فان ماريان ايفانوفنا  
أصبحت لا تكلمنى تقريبا ، وأصبحت تحاول جهدها أن  
تتجاشى لقائى . وأصبح بيت الأمر ثقيلا على نفسى . ثم  
تعمدت - شيئا بعد شيء - أن أبقى وحيدا فى بيتى . ولا متنى  
فاسيليا ايفانوفنا فى أول الأمر على ذلك ، إلا أنها - وقد  
رات إصرارى - تركتنى وشائى . وأصبحت لا أرى ايفان  
كوزمنش . إلا حين يقتضى على ذلك . ولا ألقى شغابرين إلا فى  
النادر القليل ، ودون أن أجسد فى لقائه أية متعة ، لا سيما  
واننى لاحظت أنه يحمل لى كرها خفيا . وهذا ما أيد ظنونى  
وشبهائى . . صرت كمن أشمار من الحياة كلها ، وهويت إلى  
كتابة قائمة تقويها الوحدة ، وتغذيها البطالة . وكانت العزلة  
تزيد حراة حبى ، فكنت أزداد الما وعدابا يوما بعد يوم .  
وفقدت الميل إلى القراءة وإلى كل شغل أدبى . وأصبحت  
فى حالة من الانهيار المرضى خشيت معها أحد شيئين : الجنون  
أو المجون . إلا أن حوادث لم تكن فى الحسبان ، بثت فى نفسى  
- على حين فجأة - اندفاعا قوية مفيدة ، كان لها فى حياتى  
كلها تأثير عظيم .

- ٦ -

## الاستعداد لمواجهة المتمردين

« أسمعوا أيها الغتية البسطاء . .  
« ما نقصه عليكم ، نحن الشيوخ » - أغنية  
قبل أن أشرع فى سرد الأحداث الغريبة التى شهدتها .  
يجب على أن أقول بضع كلمات عن حالة إقليم ( اورنبورج )  
فى أواخر عام ١٧٧٢ :

كان يقطن هذا الإقليم الغنى الواسع ، عدد من الأقوام هم  
إلى التوحش أقرب منهم إلى التمدن ، لم يعترفوا بالسيادة  
الروسية إلا منذ عهد قريب . ولم تكن هذه الأقوام قد  
تعمدت النظام وحياة الحضارة ، فكانت طلياعها لا تخلو من  
طيش وقسوة ، وكانت تقوم بثورات كثيرة . فكان هذا كله  
يقتضى من جانب الحكومة رقابة متواصلة تلزمهم باحترام  
الدولة والخضوع للقانون ، فأقامت حصونا حيث بدا ذلك  
ضروريا ، وعينت للحصون فى الغالب جنودا من القوزاق ،  
يقطنون ضفاف ( البايق ) منذ مدة طويلة . إلا أن هؤلاء  
المحاربين الذين اعتمدت عليهم الدولة لإقامة دعائم  
الهدوء والأمن فى البلاد ، كانوا هم أنفسهم رعايا طائشين  
خطرين . فانشعلوا الثورة فى عاصمتهم ، عام ١٧٧٢ . وكان  
الدافع إلى هذه الثورة ما اتخذته اللواء « تراوبنبرج » من  
إجراءات فاسية لإخضاع فرقة ( البايق ) النظام ، لقتلوا

« تراورنيرج » قتلا وحشيا . واحذثوا في القيادة ما شاء لهم  
هوامهم من نديدات . إلا أن الفتنة أهدمت أخيرا وانزلت في  
الشائرين عقوبات هائلة .

كل ذلك كان قد وقع قبل وصولي إلى ( بيلوجورسكايا )  
بقليل . وكان كل شيء قد عاد إلى النظام ، في الظاهر على  
أقل تقدير . . وقد أسرفت السلطات في تصديق اتوبة  
الكاذبة التي يظهرها هؤلاء القوزاقيون ، على حين ظل الحقد  
يملا نفوسهم . فهم ينتظرون الفرصة المواتية لاستئناف  
أعمال المعيان والنوضى .

وبعد ، فلنعد إلى قصتنا . . في ذات مساء — وكان ذلك  
في أول تشرين الثاني من عام ١٧٧٣ — بينما كنت واقفا إلى  
نافذتي وحيدا . استمع إلى صفيح الريح واتأمل السحب  
التي تغطي القمر . جاءني أحدهم يقول أن الأمر يستدعيني .  
فذهبت إليه على الفور . فوجدته « مؤثرا » بشغابين وأيفان  
اجناتش والوكيل القوزاقى . ولم تكن بينهم فاسيليسا  
بيجوروفنا ولا ماريا ايفانوفنا . واستقبلني الأمر وقد بدا عليه  
القلق والاضطراب ، ثم أغلق الباب وطلب إلى الجميع أن  
يجلسوا . إلا الوكيل ظل واقفا إلى جانب الباب . ثم أخرج  
الأمر من جيبه ورقة وهو يقول : « هناك خبر هام ، يا حضرات  
الضباط . . اسمعوا ماذا كتب إلى القائد اللواء :

(١) أى : مجتمعا بهيئة المؤتمر .

« إلى الرئيس ميرونوف . أمر حصن بيلوجورسكايا —  
مكتوم (١) . »

« أرسل إليكم هذا الكتاب لأعلمكم أن قوزاقيسا من الدون  
يدعى ايليان بوجاتشيف . قد هرب من السجن ، واقترب  
وقاحة لا تغفر إذ اقتحل اسم المرحوم الإمبراطور بطرس  
الثالث . وجمع عصابة من المجرمين ، فدعا جنود ( اليائيق )  
إلى الثورة . واستولى على عدة حصون حتى الآن وخربها ،  
وأثار القتل والنهب والسلب في كل مكان . لذلك يجب عليكم ،  
يا حضرة الرئيس — لدى وصول هذه الرسالة إليكم — أن  
تتخذوا الإجراءات اللازمة لرد هذا اللص المدعى . ولإقناعه  
إذا أمكن . متى بدا له أن يهاجم الحصن الذي عهد به  
إلى كفايتكم المهازرة . »

— الإجراءات اللازمة ؟

قال الأمر ذلك وهو يرفع نظارتيه ويطلو الورقة . ثم  
أردف يقول : « الكلام سهل ! . . إن هذا الكلب قوى فيما  
يظهر . ونحن لا نملك إلا ١٣٠ رجلا ، فيما عدا القوزاق الذين  
لا يعتمد عليهم كثيرا . . لا تؤاخذني يا مكسيمتش ! « هنا  
ضحك الوكيل ، على أنه لابد من العمل . يا حضرات الضباط ،  
نكونوا على أهبة من الأمر . ونظروا الرقابة ودوريات الليل . .  
وانت يا مكسيمتش ، عليك بمراقبة أصحابك القوزاق مراقبة  
جيدة . وليفحص المدفع . ولينظف تفشلا . . ولكن .. »

كل شيء ، اياكم وإذاعة النبا !.. حافظوا على الر محافظة مطلقة ، حتى لا يعرف الأمر أحد من الحصن قبل الأوان .. قال الأمر هذا الكلام ، ثم أذن لنا بالانصراف ، فخرجت يصحبني شفايرين . وتحفنا فيما سمعنا .

قلت : « ما رأيك ؟ كيف ينتهى الأمر فيما نعتقد ؟ » فأجاب شفايرين : قائلا : « الله أعلم . على أن الأمر - حتى الآن - ليس بالخطير . أما إذا .. » . وأطرق فجأة يفكر ، ثم أخذ يصفر لحننا فرنسيا وهو ذاهل .

\*\*\*

ذاع نبا ظهور بوجاتشيف في الحصن ، برغم جميع ما اتخذنا من احتياطات لكتمانه . ما كان لايفان كوزميتش ، برغم الاحترام العظيم الذى يحمله لزوجته : أن يفضى لها بسر من أسرار العمل على أى حال من الأحوال . لذلك ما كاد يتلقى رسالة القائد اللواء : حتى تصرف بحكمة ولباقة ، ليصرف فاسيليسا بيجوروفنا من البيت . فزعم لها أن الأب جراسيم قد تلقى من ( أورنوبورج ) أنباء خارقة لا يريد أن يبوح بها أبدا . فما أن سمعت فاسيليسا بيجوروفنا ذلك : حتى تملكها رغبة قوية في زيارة الأب جراسيم . واقترح عليها ايفان كوزميتش أن تصحب ماشا دفعا للملل أثناء الطريق .. فلما أن ذهبت فاسيليسا بيجوروفنا ، وأصبح سيد الأمر وحده ، أرسل يستدعينا على الفور « وسجن » بالإشكا « في المستودع . نحاثيا لكل ما قد يفشى السر .

وعادت فاسيليسا بيجوروفنا إلى البيت دون أن تستطيع استدراج الأب جراسيم إلى الإقضاء بأى شيء ، ثم ما لبثت أن علمت أن اجتماعا قد عقد أثناء غيابها في البيت وأن بالإشكا سجن في المستودع . فادركت أن زوجها قد خدعها ، وأخذت تستدرجه . إلا أن ايفان كوزميتش كان قد تهيأ لهجومها ، فلم يشطرب أبدا . وأجاب بصوت هادئ على استجواب زوجته الطلعة (١) : قال : « اسمعى يا عزيزتى ، أن السكان لم يجدوا خيرا من القش يحرقونه في مدافنهم . ولما كان هذا خطرا جدا : فقد أصدرت أمرا صارما بأن لا يسمح لهم بذلك بعد الآن ، وأن يستغنوا عن القش بالحطب » - فسألته : « ولماذا سجن بالإشكا ؟ » . لماذا اضطرت البنت المسكينة أن تبقى في المستودع إلى أن عدنا ؟ » .

ولم يكن ايفان كوزميتش قد تهيأ لهذا السؤال ، فارتبك وتلجلج ، وقال كلاما لا ترابط فيه ولا منطق ، فنهبت فاسيليسا بيجوروفنا أنه كان يضلها . ولما كانت تعرف أنها لن تستطيع أبدا أن تستدرجه إلى البوح بشيء ، فقد غيرت الحديث ، وتكلمت عن الخيار المخلل ، ذاكرة أن امرأة القس تحضره بطريقة خاصة .. وقضت الليل كله لا يصرف النوم إلى جفניה سبيلا ، إلا أنها لم تستطع أن تحرز ما كان يضر زوجها من أشياء ينبئ ألا يظلمها عليها .

وفيما هي عائدة من الصلاة في اليوم التالي . رأت ايفان اجناتش يخرج من المنبع خرقة . وحصي ، وغشارة : وعظاما . وانواعا من الصوابية . مما حشاه به الأطفال . غشائيات الامرة : « ما معنى هذه الاستعدادات ؟ » . اوتوقعون عجوم الكرخيز ؟ . . . ولكن اكان يمكن ان يكتم عنى ايفان كوزميتش هذا ؟ » .

ثم استدعت ايفان اجناتش . وهي تسوى ان تستدعيه قطعاً . وان تمام هذا السر الذي يثير فضولها النسوى . . . وبدأت في اول الامر تبدي له بعض الملاحظات المتعلقة بتسوى البيت : كما يفعل القاضي حين يبدأ بان يطرح على المتهم اسئلة من شأنها ان تخدر بقلته . ثم بعد ان صمتت لحظلة من الوقت : اطلقت من صدرها زفرة عميقة . وهزت رأسها . وقالت متنهدة : « يا إلهي ! . . ان الاخبار سيئة جدا ، ترى ما الذي سيحل بنا ؟ » . فاجاب ايفان اجناتش ، قائلاً : « ان الله رحيم يا عزيزتي ، ولدنا عدد كاف من الجنود ، وذخيرتنا من البارود وغيرة ، وقد نخلت المنبع . . . ولعلنا نستطيع ان نقاوم بوجاتشيف . من امانه الله فلا ضار له ! » . فسالت الامرة : « ولكن من هو بوجاتشيف هذا ؟ » .

هنا ادرك ايفان اجناتش انه قال اكثر مما كان ينبغي ان يقول ، فعرض على شفته ، ولكن سبق السيف القتل . . . فاجبرته فاسيليسا بيجوروفنا على ان يعترف لها بكل شيء . بعد ان قطعت على نفسها عهداً بالا تتقل هذه الاخبار إلى احد . . .

ولقد برت بوعدھا . فلم تتحدث بالامر إلى احد . اللهم إلا زوجة القس ، وذلك لان بقرة زوجة القس تهرب دائماً إلى المراعي . ومن الممكن والحالة هذه ان يقبض عليها هؤلاء اللصوص ! . . . وما هو إلا وقت قصير ، حتى اصبح الناس لا يتحدثون عن شيء غير « بوجاتشيف » . وانقسمت الآراء « . . . واصدر الامر امره إلى الوكيل بان يمشي يتسقط الاخبار في الحصون والقرى المجاورة . وعاد هذا بعد يومين يقول انه رأى في السهوب على بعد ستين فرسخاً من الحصن نيراناً كثيرة ، وان الباشكير قد رروا له ان نرقاً مجهولة تتقدم بقوى عظيمة . وأضاف إلى ذلك انه لا يستطيع ان يؤكد شيئاً على كل حال ، لانه لم يجرؤ ان يبعد في توغله .

\*\*\*

ولوحظت حركة قوية بين غوزاق الحصن : فكانوا يتجمعون في جميع الشوارع ، ويتسارون ، ثم يفرقون متى اقترب منهم خفي أو جندي . وبك الامر فيهم عيوننا تترصد لهم . نجاءه « يولائي » - وهو كلوكي منتصر - بنياً خطير . وهو ان اتوال الوكيل كاسية . وان هذا القوزاقى المخادع قد ذكر لرفاقه انه ذهب إلى الثوار وقابل رئيسهم ، وان رئيسهم هذا قد سمح له بان يقبل يده ، وأنه تحدث إليه مدة طويلة . فما لبث الامر ان اوقف الوكيل ، وعين « يولائي » في محله ، فاستقبل القوزاق هذا النبأ باستياء واضح ، وتذمروا معه جهاراً ، حتى ان ايفان اجناتش - الذي عهد إليه الامر بتنفيذ امره - قد سمع بأذنيه تهديدات من هذا التسلل : « انتظر قليلاً ، ايها الجرذ ، فسيأتى ذرئنا ويحرق بيتك ! » .

وكان الأمر يريد أن يستجوب سجينه في اليوم نفسه، إلا أن السجين قر ، بمهونة انصاره .. في اقلب الظن . ووقع حادث جديد فاقم مخاوف الأمر وقلقه . فقد اعتقل أحد الباشكير ، وهو يحمل منشورات تحض على الثورة . فأراد الأمر في هذه المناسبة أن يجمع ضباطه مرة أخرى . وأن يبعد - من أجل ذلك - فاسيليسا بيجوروفنا عن البيت ، بانتحال حجة مناسبة . ولما كان ايفان كوزيمتش من اصرح الناس واكثرهم استقامة ، فانه لم يجد وسيلة أخرى « غير التي عمد إليها في المرة الأولى ، والتي كانت ناجحة موفقة ، فقال لامرأته وهو يتنحج : « اسمعى يا فاسيليسا بيجوروفنا .. يقال ان الأب جراسيم قد تلقى من المدينة .. » . فمقاطعته الأمرة : « كفى كذبا ! .. انك تريد أن تجمع ضباطك لتكلمهم أثناء غيابي في أمر امليان بوجاتشيف .. ولن تخذعنى هذه المرة ! » .

فرمت عينا ايفان كوزيمتش ، وقال : « اسمعى إذن يا عزيزتى .. ما دمت على ملم بالأمر ، ففى وسعك أن تبقى : وستتداول في الموضوع بحضورك » . فقالت : « هكذا يجب ان تتصرف .. لست انت من يستطيع المكر ! .. هيا استدع الضباط ! » .

واجتمعنا مرة أخرى ، فقرأ علينا ايفان كوزيمتش - بحضور زوجته - مطالب بوجاتشيف ، وقد ديجها قوزاتى كاد ان يكون اميا .. أن هذا اللص يعلن عن نيته في زيارة حصننا ، ويدعو القوزاق والجنود إلى الالتحاق به ، ويحاول

إقناع الرؤساء بالإلا ييدأوا أية مقاومة ، ويهددهم بالتعذيب إن هم قاوموا .

وقد كتبت هذه المطالبات بأسلوب فظ . ولكنه جذاب لابد ان يحدث تأثيرا خطرا في أناس بسطاء .. فهتفت الأمرة : « يا له من كلب حقير ! أهذا ما يدعونا إذن إليه : أن نهب إلى استقباله ، ونلقى بإعلاننا بين قدميه ؟ .. خاب غال ابن الكلب ! الا يعلم اننا نخدم البلاد منذ اربعين عاما ، واننا قد راينا كثيرا من امثاله ؟ .. هل هناك حقا من آثرى المواقع من استجاب لدعوة هذا اللص : وخضع لامره ؟ » .

فاجاب ايفان كوزيمتش : « لا اعتقد ان شيئا من هذا قد حصل ، ولكن يقال ان اللص قد استولى حتى الآن على عدة حصون » . فقال شفايرين : « ذلك لأنه قوى حقا » . وإذا ذاك قال الأمر : « هذا ما سترأه بعد لحظة .. فاسيليسا بيجوروفنا ، أعطينى مفتاح الشونة ! .. ايفان اجناتتش ، على بالباشكيرى ، وقال ليولائى ان يأتينى بالأسواط ! » . فقالت الأمرة وهى تنهض : « انتظر يا ايفان اجناتتش .. دعنى اخرج بماشا قبل كل شيء ! .. سموت خونا ، إن هى سمعت الصراخ . وانا نفسى لا احب هذا « التعذيب » والحق يقال .. أرجو لكم التوفيق ! » .

وكان التعذيب في ذلك الوقت من الرسوخ في تقاليدنا القضائية بحيث أن القرار الموقى الذى اتخذ لإلغائها ظل مدة طويلة دون تطبيق .. كانوا يعتقدون أن تعذيب المحرم بجرمه شيء لابد منه . والواقع أن هذا الاعتقاد لا يستند إلى

اساس ، بل إنه يناق المنطق القضائي . لانه إذا لم يكن الإنكار دليلا على البراءة ، فالاعتراف ليس دليلا على الجرم . ما زال يتفق لى حتى يومنا هذا ان سمع بعض الشيوخ من القضاة يأسفون لروايل هذه العادة الوحشية . اما فى ذلك الوقت ، فمما من أحد كان يشك فى فائدة التعذيب ، لا من القضاة ولا من المتهمين . لذلك فان الأمر الذى أصدره الأمر لم يدهش احدا ، ولا أقلق احدا . ومضى ايفان اجناتشس يحضر الباشكبرى الذى كان فى أحد العنابر وبعد لحظات جىء بالسجين إلى الدهليز .

اجتاز الباشكبرى العتبة فى مشقة وعناء — إذ كانت ثمانية مقبدين — ثم رفع ثعبنه المخروطية \* ووقف قريبا من الباب . فلما نظرت إليه ، سرت فى جسمى رعدة قوية . ان انسى هذا الرجل ما حييت .. كان يبدو انه تجاوز السبعين ، وكان مقطوع الاتف ، مصلوم الأذنين ، مخلوقا شعر الرأس ، فى ذقنه بضع شعرات بيض .. وكان قصيرا ، نحىلا محدودب الظهر ، إلا ان عينيه الصغيرتين كانتا تقفحان شررا .

قال الأمر وقد عرف فيه — من هذه العلامات — ثائرا قديما عوقب عام 1٧٤١ : « أهذا انت ايها الذئب القديم الذى سبق ان وقع فى الفخ !.. إذن لميسن هى المرة الاولى التى تثور فيها . ارنى هذا الرأس الحليق !.. اقترب ! قل ، من ارسلك ؟ » . ولم يجب الباشكبرى المجوز بشيء ، بل راح يرمى الأمر بنظرة خالية من أى تعبير . فاستأنف الأمر قائلا : « لماذا لا تجيب ! ام انك لا تفهم الروسية ؟.. يولائى ، اسأله بلغتكم عن ارسله إلى حصننا ؟ » .

فردد يولائى السؤال باللفة التثرية ، إلا ان نظره الباشكبرى ظلت جامدة لا تعبر عن شيء ، ولم يجب كلمة واحدة . فقال الأمر : « حسنا . ستجيب بعد قليل . هيا ايها الشباب ، اخلعوا عنه هذا البرد الحثير . ومزقوا ظهره جلدا !.. يولائى ، اننى اعتمد عليك . ولوصيك به خيرا ! » .

ناخذ جنديان من المشوهين ينضوان عن الباشكبرى ثيابه . فاذا بوجه الشقى يكتسى تعبيرا قلعا .. فكان يرمى على من حوله نظرات مذعورة . كحيوان اسره أطلق . حتى إذا أمسك أحد الجنديين يديه ووضعها على كتفيه فى مستوى عنقه . وقلبه على ظهره . وهز يولائى سوطه ، فاطلق المحو صرخة متوسلة ليست بدات احرف ، ثم رنح رأسه وفقر فاه فاذا نحن نرى فى مكان اللسان قطعة من اللحم مقطوعة ترتعس .

حين اتفكر ان هذا كله قد حدث أثناء حياتى ، واننا وصلنا اليوم إلى هذا العهد السعيد ، عهد الإمبراطور الكسندر ، لا يسعنى إلا ان أدهش لهذا القدم الذى أحرزناه ، ولهذه السرعة فى انتشار المبادئ الإنسانية .. وإذا وقعت مذكراتى هذه بين يدى شاب . فليفكر ان أحسن التغييرات وإبقاعها هى التى ترجع إلى تحسن الأخلاق والعادات ، لا إلى حزة عنيفة أو ثورة جامحة .

وقال الأمر : « أرى أننا لا نستطيع ان نمنع من هذا الرجل شيئا يذكر . يولائى - أعد الباشكبرى إلى المعتقل .

ايها السادة ، فقد بقيت هناك اشياء كثيرة يجب ان ننظر فيها ! » .

\*\*\*

وفيما نحن نعالج الموقف . إذا بفاسيليسا ييجوروفنا تدخل الغرفة فجأة وهي تلهث . وقد لاح في وجهها دعر عميق . فسألها زوجها دهشاً : « ماذا حدث لك ؟ » .

« شر مستطير ! .. احتلوا اليوم ( نين - أوزرنيا ) .. لقد وصل الآن منها أحد عمال الأب جراسيم » وقال إنه شهد المعركة ، وإن الأمر وجميع الضباط قد شنتوا .. من المتوقع إذن أن تصل العصابة بين لحظة وأخرى .

صعقت لهذا النبأ ، فأننى اعرف أمر الموقع في ( نين - أوزرنيا ) تقع على بعد ٢٥ فرسخاً من بيلوجورسكايا .. فكان من المتوقع إذن أن تهاجمنا عصابات بوجاتشيف في كل لحظة . وتصوريت المصير الذى قد تؤول إليه ماريا ابناثونا ، فاختنق صدرى عما وقلنا . وقلت متجهاً إلى الأمر : « اسمع يا ايغا كوزميتش ! .. إن واجبنا هو أن ندافع عن الحصن حتى النفس الأخير ، هذا أمر لا يخامرنا فيه ظل من شك . ولكن يجب أن تقي السيدات أى أذى يمكن أن يقع عليهن . فأرسلهن إلى ( أورنبورج ) ، إذا كان الطريق حراً ، أو أرسلهن إلى أى حصن بعيد لا يتسع وقت اللصوص للوصول إليه ! » .

فالتفت ايغان كوزميتش إلى زوجته يسألها : « هل تسمعين ؟ .. ما رأيك في أن أرسلكما إلى مكان بعيد ، إلى أن تغلب على هؤلاء العصاة ؟ » . فأجابت الأميرة : « هذا

جنون ! .. ابن الحصن الذى لا يتألم منه الرصاص .. ولماذا تظن أن حصن بيلوجورسكايا أقل مناعة من غيره ؟ .. نحن فيه ، بحمد الله ، منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقد رأينا كثيراً من رجال الباشكير والكرخيز ، وسيفصمنا بإذن الله من بوجاتشيف ! » . فأجاب ايغان كوزميتش يقول : « حسناً ! ابقى هنا ما دمت تولين حصننا كل هذه الثقة . ولكن ، ما نضنع بماذا ؟ .. أن الأمر ليهون إذا استطعنا أن ننظر في الدفاع عن أنفسنا - أو إذا وصلنا نجدة ، ولكن .. إذا استطاع الثوار أن يستولوا على الحصن .. » .  
« عندئذ .. ؟ ! »

قالت فاسيليسا ييجوروفنا ذلك : ثم صمتت ، وقد لاح في وجهها فائز عميق . فاستأنف الأمر يقول : « وقد لاحظ أن كلامه أحدث تأثيراً في زوجته .. ربما لأول مرة في حياته : « كلا يا فاسيليسا ييجوروفنا .. يجب ألا تبقى ماشياً هنا . فلنرسلها إلى ( أورنبورج ) تقيم عند أشبيتنتها ، فانهم يملكون هناك عدداً كثيراً من فرق القتال ومن المدافع ، والأسوار هناك من حجر . وإننى لأضحك أنت أيضاً بالمضى إلى أورنبورج .. ستبين ماذا يصنع بك هؤلاء اللصوص ، إن قدر لهم أن استولوا على الحصن ، فلن يصددهم أنك عجوز ! » .  
فأجابت الأميرة : « أوافق على إرسال ماشا . أما أنا فلا تطلب إلى ذلك أبداً ، ولا في الحلم .. لن أذهب ! .. إن انفصل عنك في هذه السن ، لأضى باحثة عن قبر وحيد في بلد مجهول . لقد عشنا معاً ، ومعا سنموت ! » .  
فأجابت الأميرة : « هذا كلام معقول ، ويتنبأ إذن ألا تضلح الوقت في حشرى



ماشيا للسفر ، فسرسلها غدا في الفجر . وسيصبحها خفير .  
برغم اننا لا نملك من الرجال ما يفيض عن حاجتنا . ولكن أين  
ماشيا الآن ؟ » .

— إنها في بيت آكولينا بامفولوفنا . لقد اغمى عليها حين  
بلغها نبال الاستيلاء على ( نيب — اوزرنايا ) . واني لأخشى أن  
تسقط مريضة . رياه ! إلى أين وصلنا !

ومضت فاسيليسا ييجوروفنا تهيب سقر ابنتها . واسنمى  
الحديث : إلا اننى أصبحت لا أشارك فيه . ولا أسمع شيئا .  
ورأيت ماريا ايفانوفنا على العشاء شاحبة الوجه ، مورية  
الجفن من البكاء . وتقولنا طلعنا صابطين . وتهضنا عن  
المائدة قبل الألوان المألوف . ثم استأذنا الأسرة في الانصراف ..  
وانته كل منا إلى بيته ، إلا اننى تمسدت أن انسى سيفى في  
منزل الأمر . ثم عدت لأخذه .. وكنت أشعر انى سأقابل ماريا  
ايفانوفنا على انفراد ، فتحقق ظنى .. ولقيتني ماريا ايفانوفنا  
عند الباب نمد إلى السيف . وقالت والدموع في عينيها :  
« بترو اندريفتش ، انهم يرسلوننى إلى أورنبورج .. أرجو  
لك عمرا مديدا وحياة سعيدة .. وقد بشاء الله أن نلتقى  
مرة أخرى .. وإلا .. » . ثم انفجرت تفتحب : فآخذتها بين  
ذراعى . وقلت أجيب :

— إلى اللقاء يا ملاكى ، إلى اللقاء يا مزيونى ، يا حبيبتي !  
.. وثقى أنك ستكونين في خيالى إلى آخر لحظة : مهما يقع  
من أحداث .. وأن آخر صلاة تسمن بها شفائى ستكون لك !  
وكانت ما تزال تنتحب .. وارتمت على صدرى ، فغفلتها  
في حرارة ، وسارعت فتركت الغرفة .

— ٧ —

## العدو يستولى على حصننا

« لك الله يا رأسى المسكين .  
» قضيت بالخدمة ثلاثة وثلاثين عاما ،  
» لم تقز بمغتم ، لم تقز بفرحة ،  
» لا ولا طول جميل ..  
» ما فزت إلا بركبتين طوليتين ،  
» وعارضة من خشب الدلب ،  
» ومعدة من حرير ! » — أغنية شعبية

قضيت تلك الليلة كلها دون أن أنام . ودون أن أطلع  
ملابسى .. كنت أنوى أن اذهب عند الفجر إلى باب الحصن  
الذى ستخرج منه ماريا ايفانوفنا راحلة . فأودعها الوداع  
الأخير .. كنت أشعر بتغير في نفسى . إن الانفعال الذى أعانيه  
في هذه اللحظة أخف وطأة — على نفسى — من تلك الكتابة التى  
عشتها في الأوقات الأخيرة . لقد قضيت إلى الأمام الفراق !  
آمال عفية — على أنها غير واضحة — وشوق إلى الأخطار ،  
وشعور بالطموح نبيل !

وانقضى الليل دون أن أحس انقضاءه . وكنت على وشك  
أن اخرج إلى الشارع ، حين فتح الباب ، ودخل على أحد  
الرقباء ، يبلغنى أن القوزاق قد ~~دخلوا الحصن أثناء الليل~~  
وجروا معهم « يولائى » عنوة .. ~~وأنهم قد دخلوا الحصن~~  
www.dvd4arab.com

بخيلهم حول بيلوجورسكايا . فأعطيت الرقيب بعض التعليمات بسرعة ، وهرعت إلى بيت الأمر . . وكان الصباح قد طلع . وكنت أطمح في الشوارع ، حين سمعت صوتا يناديني ، فتوقفت . . فإذا هو ايفان اجناتش . وقال وهو يلحق بي : « إلى أين تركض ؟ » . ان ايفان كوزميتش على الأسوار ، وقد أوفدني لاستدعائك . لقد وصل بوجاتشيف ! . . قتلنا وأنا اشعر بقلبي يرتعد : « وماريا ايفانوفنا ؟ . . هل سافرت ! » فأجاب : « كلا . . لم يتسع الوقت . إن طريق اورنبورج متطوع » والحصن محاصر . . الحالة سيئة يا بتر . اندريتش ! » .

وذهبنا إلى الأسوار . . إنها مرتفع من الأرض طبيعي ، أضيفت إليه بعض التعزيزات . وكان جميع سكان الحصن يسارعون إلى الأسوار . ورايت الجنود على أهبة القتال ، والمدفع قد نصب منذ الأمس . . ورايت الأمر يتجول أمام صفوف جنوده الموزعة هنا وهناك . . كان اقترب الخطر قد بث في هذا المحارب العجوز شجاعة خارقة . ورايت عشرين فارسا يخبون غير بعيد من الحصن . . كان معظمهم من القوزاق ، وإن رؤى بينهم عدد من الباشكير الذين يعرفون بسهولة من قبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد ، ومن كلباتهم .

وكان الأمر يطوف بين جنوده ، قائلا : « فلنقاتل اليوم يا أولادي في سبيل أمنا القيصرة ( كاترين الثانية ) ، ولنبرهن للعالم بأمره على أننا أناس شجعان أمعاء على العهد ! » . فكان الجنود يجيئون بهتافات عالية : مؤكدين حماسهم وقوة

بأسهم . ووقف شغابين إلى جانبي يحدث في العدو بانتباه شديد . فلما لاحظ فرسان العدو هذه الحركة في الحصن ، اقترب بعضهم من بعض ، وكانوا أخذوا يتشاورون فيما بينهم ليحكموا تنظيم صفوفهم . فما كان من الأمر إلا أن أصدر أمره إلى ايفان اجناتش أن يسدد نيران مدفعه على هذه الطائفة ، واقترب هو نفسه يشعل الفتيل . ودوت القذيفة ، إلا أنها مرت فوق رؤوسهم دون أن تصيبهم بأى أذى . وتفرق الفرسان على الفور ، ومضوا على صهوات جياهم خبيا . ولم تلبث المراسي أن انقرفت .

وفي هذه اللحظة ظهرت فاسيليسا يجوروفنا على السور ، تبعتها « ماريا » ، التي لم تشأ أن تبقى في الوراء . ونساء البيرة : « وبعد ! أين المعركة ؟ . . لست أرى عدوا ! » . فأجاب ايفان كوزميتش ، قائلا : « ليس العدو بعيد . وسنبر الأمور على أحسن حال إن شاء الله . . وانت يا ماشا ، هل انت خائفة ؟ » . فأجابت ماريا ايفانوفنا : « كلا يا أبت . إن بقائي وحيدة في البيت يخيفني أكثر ! » .

ثم ألقى على نظرة رقيقة ، وحاولت أن تبسم ، فرأيتني أشد على قبضة سيفي على غير إرادة مني . . هذا السيف الذي ناولتنيه أمس بيدها ، كاننا لأدافع به منها . . كلن الدم يغلي في عروقي ، وتخلتني فارس « ماشا » . وتحرقت شوقا إلى ان ابرهن لها على أنني جدير بتبسمها ، فأخذت انتظرا اللحظة الحاسمة بصبر فارغ .

في هذه اللحظة ، رأينا أفواجا جديدة من الفرسان تظهر

من وراء رابية على بعد نصف فرسخ من المكان . وسرعان ما  
امتلات المراعي كلها برجال مسلحين يحملون رمحا وأقواسا ،  
في وسطهم رجل يرتدى قنطانا احمر ويمتطي صهوة جواد  
اصهب . ويهز بيده سيفا مسلولا . . وكان هذا الرجل عرو  
بوجانشفيف !

وقف بوجانشفيف . وتحلق حوله رجاله . ثم انفصل عن  
الجمع أربعة رجال اتجهوا نحو الحصن ، بعد ان تلقوا أمرا  
بذلك من غير ريب . فلما اقتربوا من الحصن ، عرفنا فيهم  
خوننفا . كان أحدهم يحرك فوق تبعته صحيفة من الورق .  
وكان آخر يحمل على طرف رمحه رأس يولائي ، قلده إيلينا  
من فوق السور ، فتدحرج رأس المسكين بين قدمي الأمر .  
واخذ الخونة يصيحون : « لا تطلقوا النار . تعالوا تابلوا  
القبر . . إن جلالة هنا ! » . فاجاب ايفان كوزميتش ، قائلا :  
« أنتظروا قليلا ايها الخونة . اطلقوا النار ، اولادى ! » .

فماطلق جنودنا نيران أسلحتهم ، فرأيت القوزاقى الذى  
يحمل الرسالة يترنح فوق حصانه ، ثم يتدحرج على الأرض ،  
وولى رعاقه الأديار . نظرت إلى « ماريا ايفانوفنا » ، فاذا هى  
— وقد صمعتها منظر الرأس الدامى ، رأس يولائي ، وأصمها  
إطلاق النار — تبدو كأنها هى فقدت وعيها . ونادى الأسير  
أخذ الرقباء ، وأمره ان يأتبه بصحيفة الورق التى سقطت  
من بين يدي القوزاقى القتيل ، فخرج القوزاقى إلى السهل .  
وعاد يجرح حصان القتيل . ومد الرسالة إلى الأمر . فلما  
فرغ ايفان كوزميتش من قراءتها ، فرمىها على الأرض . وكان



في هذه اللحظة ، رأينا أفواجا جديدة من الفرسان تظهر . .

المجرمون المكررة يتمايرون - أثناء ذلك - لمباشرة العمل : فما لبثت رصاصهم ان اخذ يصغر في آذاننا . وجاعت بعض النبال تخترق الأرض والصور بالقرب منا .

قال الأمر يخاطب زوجته : « فاسيليسا بييجورفنا .. ليس الأمر الآن امر نساء - فاذهبى بماشا !.. الا ترين انها اقرب إلى الموت منها إلى الحياة ؟ » . وتأثرت فاسيليسا بييجورفنا من الرصاص ، فألقت نظرة على المراعى التى تضطرب بحركة كبيرة ، ثم قالت وهى تلتفت نحو زوجها . « ايفان كوزميتش ، لا يعرف أحد من يموت ومن يحيا .. بارك ماشا !.. ماشا ، اقتربى من أبك ! » .

فاقتربت ماشا من ايفان كوزميتش : ممتعة اللون مرتجفة . ثم جثت على ركبتيها وانحنت حتى لامست الأرض . فرسم الأمر عليها إشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم انهضها فقبلها ، وقال لها بصوت متهدج : « ماشا ، ائمنى لك السعادة .. لن يتخلى الله عنك ، فصى له !.. وإذا قبض الله لك رجلا شريفا بتزوجك ، فانى اسأله تعالى أن يهب لكها السعادة .. اسعدى كما سعدنا مع فاسيليسا بييجورفنا . وداعا يا ماشا ! .. فاسيليسا بييجورفنا ، اذهبى بها حالا ! » .

فارتبت ماشا على عنقه ، واخذت تشفق . وقالت المرأة وهى تبكى : « لنلتصق نحن أيضا ! .. وداعا يا عزيزى ايفان كوزميتش . سامحنى إذا كنت قد اسأت إليك فى شئ ! » .. فقال وهو يقبل نصفه العجوز : « وداعا ، وداعا يا عزيزتى !

.. والآن ، يكفى هذا . ارجعا إلى البيت ، والبسى « ماشا » ثوب « السارافان » إذا اتسع الوقت لذلك ! » .

\*\*\*

وانسحبت الام مع ابنتها ، ونظرت إليهما تضييان ، فرايت ماشا تلتفت إلى وتحنى رأسها فى تحية . وفى هذه اللحظة لففت ايفان كوزميتش نظرنا إلى حركات يقوم بها العدو . كان العصاة يتجمعون حول زعيمهم ، ثم ينزلون فجأة عن جباههم .. فقال الأمر : « الآن سيهجمون .. استعدوا ! » .

فى هذه اللحظة ، سمعنا صرخات وزئيرا مدويا . وهجم الثوار يتقدمون نحو الحصن راكضين .. وكان مدفعنا مشحونا ، فتركهم الأمر يقتربون ، حتى إذا صاروا على مسافة قصيرة منا ، أطلق نار المدفع على حين غرة ، فسقطت القذيفة فى وسطهم ، فتنفرك العصاة يراجعون .. ويوتف زعيمهم وحده فى الأمام .. كان يهز سيفه ، ويطمئن رجاله ، ويبت بهم الحماسة .. فاذا الصراخ والزئير - اللذان انقطعما لحظة من الوقت - يدويان مرة أخرى فى قوة أكبر . فقاتل الأمر : « الآن يا اولادى ، افتحوا الباب ، ودقوا الطبل . ابمعونى ايها الشجعان ، سنخرج إليهم ! » .. وما هى إلا طرفة عين ، حتى كلا - أنا والأمر وايفان اجناقتش - فى الجهة الثانية من السور . إلا أن الجسود الخائفتين لم يتحركوا ، فصرخ الأمر يقول : « ماذا تفعلون ؟ يا أغفلى !.. إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ، وهذا هو الجسد الخائف ! » .

وفي هذه اللحظة . وصل إليها المعصاة . وافتحموا باب الحصن . وسكت الطبل . وألقى رجالنا سلاحهم . وكان المعصاة قد قلبوني على الأرض . فلما نهضت ، دخلت الحصن وراء المهاجمين . فرايت الأمر - وقد جرح رأسه - يقف في وسط جمع من اللصوص يطلبون إليه مفتاحه . وارتدت أن اهرب إلى نجدة . إلا أن عددا من القوزاق الأتوياء قبضوا على وقيدوني بأحزمهم ، وهم يقولون : « انتظروا قليلا ، يا خونة قيصركم ! » . وطافوا بنا الشوارع . فكان السكان يخرجون من بيوتهم يصلون خبزا وملحا ( علامة الترحيب ) . واخذت الاجراس تدق . ونودي في الحشد فجأة أن القيصر في الساحة الكبرى ينتظر السجناء ، وأن الناس سيحلقون له يمين الطاعة والولاء . . نهرع الجمهور نحو الساحة الكبرى . وإلى هذه الساحة قادونا نحن ايضا .

وكان « بوجاتشيف » جالسا على مقعد ، فوق الدرج من باب بيت الأمر ، وقد ارتدى قفطانا قوزاقيا أحمر . تزيه اشربة موشاة بالذهب . وكانت قيمته عالية . ذات زرايات ذهبية . تغطي رأسه حتى الحاجبين فوق عينيه اللامعتين . . وخيل إلى اننى اعرف هذا الوجه ! . . كان عدد من الزعماء القوزاق يحنون به . وكان الأب جراسيم واقفا إلى جانب الدرج ، منتقم اللون . مرتعدا ، وقد أمسك بيده صليبا ، وبدأ كأنه يضرع إلى الله صامتا أن يرحم الضحايا التي ستهلك . . وسرعان ما نهبت مشنقة في وسط الساحة . وحين اقتربنا من الدرج ، مرق الباشكير : الجموع

المحتشدة . وقدمونا إلى بوجاتشيف . وانقطع صوت الاجراس . وخيم صمت عميق .

وسأل الغاصب : « ايهم أمر الموقع ! » . فخرج الوكيل الخائن من الجمع . وأشار إلى ايفان كوزميتش . غالى بوجاتشيف على الرجل المجوز نظرة حائقة ، وقال له : « كيف جرؤت على مقاومتى ، وأنا مولاك القيصر ؟ » .

فأذا بالأمر . وكان خائن القسوى من وطأة جرحه . يستجمع مابقى له من عزية فجيب بصوت قوى : « أست مولاى القيصر . . ما انت إلا لص غاصب . هل تسمع ؟ » .

فقطب بوجاتشيف حاجبيه . ولوح بمنديل أبيض ، فسارع عدد من القوزاق ، فقبضوا على الضابط المجوز ، وقادوه إلى المشنقة . ورايت الباشكير المشوه - الذى استجوبناه في الليلة البارحة - راكبا على عارضة المشنقة ، ويده حبل . وما هي إلا برهة ، حتى رايت المسكين ايفان كوزميتش يتارجع في الهواء . ثم جاء دور ايفان اجناتش ، فقال له بوجاتشيف : « تعال احلف يمين الولاء للقيصر بطرس فيدوروفيتش ! » . فأجاب ايفان اجناتش بردد كلام أمره : « لست قيمرنا . ما انت إلا لص مفتصب ! » . فلوح بوجاتشيف مرة أخرى بمنذيله . ورايت الملازم الشجاع يشق إلى جانب رئيسه المجوز .

ثم جاء دورى . . واقبت على بوجاتشيف نظرة قوية جريئة ، وأنا انهما لترديد الجواب الذى قاله رفيق السهمان :

فإذا أنا - على دهشة منى شديدة - أرى شفاوبرين واقفا بين القادة العصاة ، وقد حلق شعر رأسه على شكل دائرة ، وارتنى القنطان القوزاقى . ثم رايته يقترب من بوجاتشيف ، ويهمس فى أذنه بشئ ، فيقول بوجاتشيف دون أن يلتقى على نظرة واحدة : « استنوه ! » .

وضعوا العقدة فى عنقى ، واخذت أردد بعض الصلوات بصوت منخفض « استغفر الله عن جميع خطاياى ، واضرع إليه أن يحفظ أولئك الذين احبهم .. وقادونى إلى المثنقة . وسمعت جلادى يرددون على مسامى قولهم : « كن شجاعا ، كن شجاعا ! » .. ولعلم كانوا يريدون أن يشجعونى حقا .

وفجأة سمعت صرخة تقول : « انظروا ، انظروا ! » انظروا إليها الناجيس ! .. فتوقف الجلادون ، ورايت سافيليتش جاثيا على قدمى بوجاتشيف ، وسمعت « المرمى » المسكين يخاطبه بقوله : « ماذا تجنى يا مولاى من قتل سيد صغير مسكين .. دمه وشانه ، تدفع لك فدية ! .. وإذا كان لأبد لك حتما من أن تضرب مثلا ، وأن تبث الرعب ، فمرهم بأن يشنقونى أنا الشيخ الهرم ! » .

فاشار بوجاتشيف بيده ، فإذا بهم يحلون العقدة عن عنقى ، ويطلقون سراحى ، قائلين : « إن أبانا قد عفا عنك ! » .. ولا استطيع أن أقول أننى فرحت - فى تلك اللحظة - فرحا خالصا لا يداخله ألم .. لقد تملكتنى عواطف ملتبسة ! .. وقادونى نحو الضاصب وأركمونى أمامه ، فمد إلى بوجاتشيف يده المغطنة ، نهفت الفأس من حولى يقولون :

« قبل يده ! .. إلا أننى كنت افضل أن ينزلوا بى اقصى أنواع التعذيب على أن أرضى بهذا الذل !

وسمعت سافيليتش - وكان ورائى يدفعنى فى ظهرى - يهمس فى أذنى ، قائلا « بترو اندريفيتش ، عزبرى ! .. لا تكن عنيدا .. أن هذا لا يكلفك شيئا » أبصق على الأرض وقبل يده هذا المجد .. قبل يده ! .. ولكنى لم أحرك ساكنا ، فخفض بوجاتشيف يده ، ثم قال : « لاشك أن السيد النبيل قد فقد صوابه من شدة الفرح .. انهضوه ! » .

فانهضونى ، وأطلقوا سراحى . وظللت واقفا أأمل هذه المهزلة الفظيعة تتألى نصولها أبهى .

\*\*\*

وفيد السكان إلى حلف اليمين ، فكانوا يقتربون واحدا بعد آخر . فيقبلون الصليب ، ثم يحيون الضاصب . ورايت جنودنا يهرون أمام خيماط الطابور ، فيقص لهم ضفائرهم بمقصه الخنم ، ثم يتجهون نحو بوجاتشيف يقبلون يده ، فيمن عليهم بعقودهم ويقبلهم فى عداد مصالبه . ودام هذا كله ثلاث ساعات طوال . وأخيرا ترك بوجاتشيف مكانه ، ونزل إلى الشارع مع أركان حربه « وأتوه بحصان أصهب مجهز بأجمل عدة .. ورفعاه اثنان من القوزاق من ذراعيه إلى صهوة جواده ، وقال للأب جراسيم أنه ذاهب إلى العشاء فى بيته . وفى هذه اللحظة ، سمع صوت امرأة ، فرايت عددا من هؤلاء اللصوص يجرّون مسيليسا بييجورفا على دوح الباب ، وقد تشمت شعرها ، وعريت من ملابسها .

اتسع وقته لارتداء معطفها ، وكان الآخرون يسبيل إخراج  
وسائد وصناديق وأوان وملابس وأنواع كثيرة من الأثاث  
والثياب .

وكانت المرأة المسكينة تصرخ : « اسمحوا لى ان ابنى  
وان اتوب إلى الله . » خذونى إلى جانب ايفان كوزميتش ! » .

فلما رأت المشقة فجأة ، فرغت زوجها ، فصرخت وقد  
طاشت عقلها : « ايها اللصوص ، ماذا صنعتم به ! .. آه  
يا عزيزى ايفان كوزميتش ، ايها المحارب الشجاع ! .. لم تقدر  
عليك الحراب البروسية ، ولا قدر عليك الرصاص التركى  
.. لم تميت فى ساحة القتال ، وإنما فنتك مجرم هارب من  
السجن ! » . فقال بوجاتشيف : « أمكتوا الساحرة  
العجوز ! .. » فإذا بقوزاقى شاب يهوى بسيفه على رأسها  
فتسقط على الدرج ميتة . ومضى بوجاتشيف فى سبيله  
وانطلقت الجبوع فى اثره .

- ٨ -

## ضيف غير منتظر

« إن ضيفا غير منتظر ..

« لأسوا من تترى » - مثل روسى

دخلت المساحة العالمة من الناس .. وظللت من حول  
ماريت واقفا لا تحرك ، ولا استطيع أن أجمع شقات  
فكرى ، ولا أن أعزم على شيء من امرى .. وكان جهلى بالمصير  
الذى آلت إليه ماريا ايفانوفنا يعذبنى أكثر من أى شيء آخر .  
اين هى الآن ؟ .. ماذا وقع لها ؟ .. هل اتسع وقتها للاختباء ؟  
.. هل التجات إلى مكان مايون ؟

ثم دخلت بيت الابن ، وأنا فيها أنا فيسه من تساؤل ، قلق  
وغم .. كان كل شيء فى البيت خاليا . فالكراسى والمناضد  
والصناديق والأواني .. كل شيء قد حطم وأفرغ من محتوياته .  
وصعدت سلما صغيرا يؤدى إلى الطابق الأول .. صعدته  
عدوا وأنا أقفز درجاته أربعة أربعة ، حتى دخلت غرفة « ماريا  
ايفانوفنا » ، لأول مرة فى حياتى . فرأيت سريرها قد نبشبه  
للصوص ، ورأيت خزانها محطمة منهوبة ، ورأيت القنديل  
الصغير ما زال مشتغلا أمام الخزانة الزجاجية التى تضم  
صور القديسين - والتي بقرها اللصوص - ورأيت المرأة  
المعلقة بين نافذتين ما زالت سليمة لم يمسها باذى .. ولكن  
أين هى سيدة هذه الحجرة المتواضعة ؟ .. والقفى القديمة

رهيبة .. تصورت ماثبا بين هؤلاء المجرمين ، فانقبض صدري ، وخرقت دموعا مرة ، وأنا أنادى جيبتي بصوت مرتفع .. ماذا أنا أسمع حركة خفيفة ، وإذا أنا أرى « بالاشا » تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .

قالت وهي تضم يديها ، إحداهما إلى الأخرى : « آه يا بئرو أندريفتش ، ما هذا اليوم ؟ .. ما هذه الأحوال ! » . فسألتها فارغ الصبر : « وماريا ايفانوفنا ؟ .. ماذا حل بها ! » . فأجابت : « الأنسة ما زالت حية .. إنها مختبئة عند آكولينا بامقبوفنا ! » . فهتفت مدعورا : « في منزل الأب جراسيم ! » . ولكن ، إلى هناك أينما ذهب بوجاتشيف ! » .

وهربت إلى الشارع ، أركض نحو منزل الأب جراسيم ركضاً سريعاً .. كان بصري زائفاً ، وروحي ذاهلة .. وسمعت صراخاً وتهتبات وغناء .. كان بوجاتشيف بطعم ويشرب مع رفاقه . وكانت « بالاشا » قد تبعتني ، فأرسلتها خفية إلى آكولينا بامقبوفنا أرجوها أن تأتي إلى لقائي . فما هي إلا لحظة ، حتى خرجت زوجة الأب جراسيم إلى الدهليز الذي كنت انتظر فيه . وبيدها زجاجة فارغة . فسألتها في انفعال شديد : « أرجوك .. أين ماريا ايفانوفنا ! » . فاجابت :

— إنها هنا ، هذه الحمامة العزيزة .. على سريري ، وراء الحاجز . نعم ! يا بئرو أندريفتش ، لقد كانت من الموت فاب قوسين أو أدنى ، إلا أن الله سلم ، وتم كل شيء على ما يراد . كان اللص قد جلس إلى المائدة ، حين أفاقت من إغمائها فتأوهت ! .. كدت أسقط على الأرض من شدة الرعب .



فلما أنا أسمع حركة خفيفة ، وإذا أنا أرى « بالاشا » تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .



وسمعتها اللص ، غاذا هو يسأل : « من ذا الذى يتباكى عندك يا عجوزتى ؟ » .. فحييت هذا الشقي تحية عتيقة ، وانما أقول : « إنها ابنة أختي ، يا سيدى . وهى مريضة منذ اسبوع » . فقال : « وهل هى صبية ، ابنة أختك هذه ؟ » . فقلت : « نعم إنها صبية يا سيدى » . قال : « أرنهيا إذن ابنتها العجوز ! » .. وتوقف قلبى عن الخفقان من شدة الذعر ، ولكن لم يكن ثمة مهرب ، فقلت : « امرك مطاع يا سيدى » . إلا أن البنت لا تستطيع أن تنهض لتأتى لفحمة سعادتك » . فقال : « لا بأس ، اذهب أنا إليها » ؟

تصور انه ذهب يراها ، هذا اللص ! .. انتقل إلى الجانب الآخر من الحاجز ، وسحب الستائر . ما رايك ؟ .. نظر إليها بعينيه الشبيهتين بعينى العقاب ، ولكن كان هذا كل شيء .. لقد وقنا الله هذه المحنة ! صدق اننا تبياننا انا والاب جراسيم لأن بقتلنا . ومن حسن الحظ أن الحماية الغالبة لم تعرفه أبدا ! .. يا إلهى ، رب السموات ! يا له من يوم ! .. يعجز اللسان عن الكلام ! مسكين ايفان كوزميتش ! .. من ذا الذى كان يفكر فى هذا ؟ .. وفاميليسا ييجوروفنا ؟ .. ثم ايفان اجناتش ، ما كان يأخذهم عليه ؟ .. وانت ، كيف لم يمسوك بأذى ؟ .. وشفايرين اليكسى ايلناتش ؟ .. رجل طيب مستقيم ! هه ! ولكن هل تصدق ؟ .. اننى حين كنت اتكلم عن ابنة أختى المريضة رمقنى بنظرة كأنما هو يريد أن يطعننى بضربة سكين ! إلا انه لم يقل شيئا .. انه يستحق الشكر على كل حال !

وفى هذه اللحظة ، سمعت صيحات الضيوف المخمورة ، وسمع الاب جراسيم ينادى زوجته .. كان الضيوف يطلبون خبزا . واضطربت الزوجة وقالت : « يترو اندريقتش ، عد إلى بيتك ! .. لا يتسع وقتى للبقاء معك ، فان المسئلة يسكرون ويعربدون . أرجو أن لا يومتعك حظك التمس بين ايدي هؤلاء المسكارى ! .. وداعا يا بئرو اندريقتش ! ليكن ما يكون ! .. أرجو أن لا يتخلى عنا الله ! » .

\*\*\*

وغابت .. وشمرت بشيء من الطمانينة ، فأتجهت نحو مسكنى . وفيما أنا اجتاز الساحة الكبرى ، رايت عددا من « الباشكير » تجمعا حول المشنقة ، وأخذوا ينزعون عن أرجل المشنوقين أحذيتهم . ولم استطع أن اكظم غيظى إلا فى عناء ، وما كان تدخل يسنر عن أى غائدة على كل حال .. ورايت لصوما يطوفون فى الحصن ركضا ينهبون بيوت الضايط . وكانت تبتعث أصوات المصاة من كل مكان وهم يسكرون . عدت إلى بيتى ، فرايت سافيلينتش ينتظرنى على عتبة الباب . فلما رأتى هتف : « الحمد لله ! .. كنت اظن أن المجرمين قد قبضوا عليك مرة أخرى . هل تصدق يا عزيزى بئرو اندريقتش أن المجرمين قد نهبوا كل ما فى البيت ! .. لم يبق لك شيء ، لا ملابس ولا أواني ، ولا شيء البتة . ولكن لا ضير ! .. لنحمد الله على أنهم انجسوا على حياتك . هل تعرفت زعيمهم يا سيدى ؟ »

— كلا .. من هو ؟

— كيف لم تتعرفه يا عزيزي ؟ .. أتنتسى ذلك السكير الذي اضطررك أن تهدي إليه مصطفاك في المنزل ؟ كان مصطفا من جلد الأرنب جديدا كل الجودة ، متفصه هذا الحيوان تفتيقا حين ارتداء !

شدهت ! .. حقا ان الشسبه بين بوجانثيف وبين ذلك الدليل قوى جدا . وايقنت انه هو ذلك الدليل عينه ، ففهمت لماذا عفا عني . ولم يسعني إلا أن أعجب لتمامون الظروف على هذا النحو : مصطف صبي أهديه إلى متشرد ، فاذا هو يوقيني ميتة شنيعة ! .. سكير من رواد الحانات يحاصر حصونا ويهز الدولة بأسرها !

سألني سافيليتشي : وفيما لعاداته : « هل تريد أن تأكل شيئا ؟ .. ليس متفدا ما نطعمه هنا . سامضي أبحت عن شيء أهينه لك ! » .

وبقيت وحدي ، وأخذت أفكر : ماذا أفعل ؟ .. إن بقائي في الحصن تحت سلطان هذا اللص ، أو ارتباطي بمعاصبه ! أمران لا يتفقان مع صفة الضابط التي أحملها . إن الواجب يقتضيني أن أمضي إلى حيث يمكن أن أقدم لوطني — في الظروف الحاضرة — خدمات تنبده . إلا أن قلبي ينصحني ملحا بأن أبقى إلى جانب ماربا ايقانوسا أدافع عنها وأحميها . ورغم تنبؤي بأن تغيرا سريعا سيطرأ على الموقف من دون ريب ، فأنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الارتعاد ، حين فكرت في الأخطار التي ما زالت ماربا معرضة لها .

وقطع تأملاتي وصول رسول قوزاقى ، هرع يبلغنى أن « القيصر العظيم » يستدعيني إليه ! .. فسألته وأنا استمد لأن اتبعه : « أين هو ؟ » . فأجاب القوزاقى : « في بيت الأمر .. إن مولانا — بعد أن تغدى — ذهب إلى الحمام ، وهو الآن يستريح . واضح يا صاحب النبالة ، انه شخص عظيم .

لقد تفضل أثناء الطعام ، فاكل خنزيرين مقليين .. وكان حمامه من شدة الحرارة بحيث أن تاراس كوروتسكين لم يستطع أن يطيقه ! غترك القرشاة لقوما بكاييفا ، ولم يسترد حالته الطبيعية — برش الماء البارد على جسده — إلا بعد مدة طويلة . ويقال أن دلائل عظيمة مولانا قد ظهرت منقوشة على صدره : فعلى أحد طرفي الصدر نمر ذو رأس كبيرة ، كتطعة من ذات الخمسة كوبيكات ، وعلى الطرف الثاني صورته ! » .

لم اعتقد أن من الضروري أن اخالف القوزاقى في رايه . وتبعته إلى بيت الأمر ، وأنا أتخيل ما عسى أن يكون لقائي لبوجانثيف ، وما عسى أن يؤول إليه هذا اللقاء . ولابد أن القاريء يفهم بسهولة أنني لم أكن هادئا كل الهدوء .

\*\*\*

حين وصلت إلى بيت الأمر ، كان الظلام قد بدا بهبط ، وكانت المشنقة المشنومة وضحاياها ترى في الظلام أشباحا سوداء . وكان جسم الأميرة المسكينة لا يزال ملقى تحت درج الباب ، حيث يقف ديباتان من القوزاقى — ودخس جيلنى ليؤذن بوصولى . وسرعان ما عاد ، فقادنى إلى تلك الغرفة عنها التي ودعت فيها بالأمس ماربا ايقانوسا وداعا رفيقا .

رايت امام عيني منظرا فذا : رايت بوجاتشيف وعشرة  
من زعماء القوازي تحلقوا حول مائدة مفروشة بغطاء .  
ومملوءة بالقناني والافداح . كانوا جميعا يرتدون فساتين  
وقمصانا ملونة . وكانت خدودهم المنتفخة منفرجة بتأثير  
الخمر . وكانت اميئتهم تلمع كالشرارات . لم ار بينهم  
شفايرين ، ولا رايت الوكيل ، هذين الخائنين الحديثي العهد  
بالخيانة . فلما رايت بوجاتشيف داخلا هتف يقول : « آه ،  
صاحب النبالة ! .. اهلا وسهلا ، تفضل واجلس ! » .

انسح لي الضيفوك مكانا ، فجلست صامتا الى ركن  
المائدة . وكان جاري شابا قوزاقيا ، جميلا ، مشوق القامة ،  
لم يلبث ان يسكب لي قنجا من الخمر . إلا انني لم المس  
القنح البتة . وجمعت انحص هذا الاجتماع في كثير من حب  
الاستطلاع . كان بوجاتشيف جالسا في مكان الشرف ،  
متكئا على المائدة ، وقد استند لحيته السوداء على قنضة  
يده . كانت قسمات وجهه متسجبة ، لا تخلو من جمال ،  
ولا توحى بشيء من القسوة . وكان يثنت كثيرا الى رجل في  
الخمسين من عمره ، يناديه تارة بالكوفت وتارة بانسم  
تيمونفيتش ، ويكتفي تارة اخرى بان يناديه : « عماء » .

وكان الجميع يتعاملون كرفاق ولا يبدو عليهم انهم يشعرون  
نحو رئيسهم باحترام خاص ، وكانوا يتحدثون عن هجوم  
الصباح ، وعما سيقومون به في المستقبل من اعمال . وكانوا  
لا يخرجون ابدا من معارضة آراء بوجاتشيف . وفي هذا  
الجلس الحربي ، قرروا ان يتجهوا الى ( اورنبورج ) ، وهي

حركة كانت تنطوي على كثير من الجسارة . وأوشكت ان  
تكمل بنجاح منجع . وقرروا ان يسيروا منذ القد . وقال  
بوجاتشيف : « والان ايها الاخوة ، فلنغن نشيدي المفضل ،  
قبل ان ننام . ابدا يا تشوماكوف ! » .

فلم يلبث جاري ان اخذ يغني بصوت كصوت إلناي ، أغنية  
حزينة مما يقننه ربابنة المراكب . ثم اخذ الجميع يغنون  
معا :

« على رسلك ايها الغابة الفسيحة . . لا تحدثي صخباً !  
« فتنمى الفارس المغوار من الاسترسال في تفكيره .  
« ذلك اننى سأمثل - في الفسادة - امام قاض رهيب ،  
« امام القيصر نفسه ! .. »

« سيهتف القيصر : قل لى ايها الشجاع : يا ابن الفلاح ،  
« من كان رفاقك في النيب ؟ .. وهل كانوا كثيرين ؟  
« يا قيصراه ، يا امل جميع المسيحيين !

« سأقول لك الحقيقة كلها : « كان لى اربعة رفاق ائماء :  
« الاول هو الليل الحالكة . . والثاني خنجر من فولاذ . .  
« والثالث جوادي المقدام . . والرابع قوسى المشدود .  
« وكانت رسلى نبالا احمرها بالنار ! » .

« وسيجيئني القيصر ، امل جميع المسيحيين ، بقوله :  
« مرحى ايها الشجاع ، يا ابن الفلاح . . »

« لقد عرفت كيف تذهب ، وعرفت كيف تعيب »

« سوف أنعم عليك .. »

« سوف أنعم عليك بقصر منيف ، في قلب السهول :

« سوف أنعم عليك .. بمسكنة ! » .

\*\*\*

لا استطيع أن اصف قوة تأثير هذه الاغنية الشعبية المخصصة للمسكنة ، والتي يفنيها اناس اعدوا للشئق . وإن الوجوه الرهيبة ، والاصوات المتساعمة ، وروثة الحزن التي ييمنونها في هذا الكلام المعبر في حد ذاته .. هذا كله قد يك في جسمي تشعيرة من رعب حزين . وابتلع الضيوف كاسا أخيرة ، ونهضوا عن المائدة ، واستأنفوا بوجاتشيف .. وأردت ان اتبهم ، إلا أن بوجاتشيف استوقفني ، قائلا : « ابق . أريد أن أكلبك ! » .

وبقينا منفردين .. ودام الصمت يضع لحظات ، وكان بوجاتشيف - أثناء ذلك - يحدق في ، مغمضا في بعض الأحيان عينه اليسرى نصف إغماسة . وكان ذلك يكسب وجهه هيئة خبيثة ساخرة ، ثم إذا به ينطلق في ضحكة بلغ من شدة تعبيرها عن الفرح الصريح ، أنني - حين رأيته على هذه الحال - أخذت أضحك بدوري دون أن أعرف لماساذا . وقال : « لا شك أن صاحب النبالة يعترف أنه خاف حين وضع رجاله الجبل في عنقه .. كاد لسلك أن يتدلى نصف قدم ! .. كدت تتارجح في الفضاء لولا خادملك ! .. نعم . سرعان ما تعرفت عجوزك الهرم . هل كان يدور بخلك يا صاحب النبالة أن الرجل الذي قادك إلى الفتدق ، هو

القصير العظيم نفسه ؟ ( هنا اكتسى وجهه مسحة رصينة ) لقد أخطأت في حتى كثيرا ، ولكنني عفوت عنك لكرمك ، ولأنك خدمتني في اللحظة التي كنت مضطرا فيها إلى الاختباء عن عيون اعدائي . ولكن ، انتظر قليلا ، سستري كيف اكافئك يوم استرد عرشي ! .. هل تمدني بأن تخدمني في حماسة وإخلاص ! » .

وبدا لي سؤال هذا السائل وجراته على الحق مضحكين ، حتى أنني لم استطع أن أبنع نفسي عن التبسم . فسألني وهو يقطب حاجبيه : « مم تضحك ؟ .. أتراك لا تمتد بأنني القصير ؟ .. أجب بلا تردد ولا مواربة » . فشمرت بالضطراب .. كأن يستحيل علي أن اعترف بهذا المتشرد ملكا ، وإلا برهنت على جبن لا يغفر . وكان من الصعب أيضا أن اواجهه بأنه لص ، وإلا مرضت حياتي للخطر . إن الكلام الذي كنت مستمعا لقوله في لحظات الاستيلاء الأولى - إلى جانب المسكنة ، أمام الجمهور المحتشد - أصبح يبدو لي صلفا لا طائل تحته .. ترددت في الجواب ، وكان بوجاتشيف ينتظر جوابا وهو متجهج الوجه . وأخيرا قلب السهور بالواجب - في نفسي - على الضعف الإنساني ( إنني لا أنكر الآن تلك الدقيقة في سرور عظيم ) فالتفت نحو بوجاتشيف أقول : « اسمع ! .. سأقول لك الحقيقة . فكر أنت نفسك في الأمر . كيف استطيع أن اعترف بأنك قصير ؟ .. إنك رجل ذكي ، وفي وسعك - إن أنا زعمت لك ذلك - أن تنعم اتني أخدمك ! » .

فقال : « من اكون إذن في نظرك ؟ » .

— الله اعلم ؟ .. على أنك ، كائننا من كنت ، تلعب لعبة خطيرة .

فرماني بنظرة سريعة ثم قال : « إذن أنت لا تعتقد باننى القيصر بطرس فيودوروفيتش ؟ .. حسنا ! ولكنك تسلم معى بأن الحظ طيف الشجاع . ألم يحكم جريشكا اوتربييف فى عصره (١) ؟ .. اعتبرنى من تشاء ولكن لا تتركنى . هذا هو المهم ! .. اخدمنى فى جمابة وإخلاص - اجعلك « فيلد مارشال » وأميرا .. ما رايك ؟ » .

فأجبت فى عزم وقوة : « كلا .. إننى إنسان شريف ، وقد حلفت بعين الولاة للإمبراطورة ، ولا أستطيع أن أخدمك . وإذا كنت تريد لى الخير حقا ، فدمنى أمضى إلى أوريينورج . فأتطرق بوجاتشيف يفكر ، ثم قال : « هل تصدقنى — على الأقل — إذا أنا أطلقت سراحك ، بأن لا تحارب فى صفوف أعدائى ؟ » . فأجبت :

— كيف تريد ان أعدك بذلك ؟ .. إنك لتعرف — أنت نفسك — أن هذا الأمر ليس منوطا بإراداتى . أنت الآن قائد ، وإنك لتطلب إلى رجالك الطاعة . فكيف أستطيع أن أرفض الحرب حين تقتضى الضرورة أن اشترك فيها ؟ .. إن حياتى بين

(١) الاسم الطنون للمتحال المعروف باسم « ديمترى الاول المزيق »

يديك ، فإن تركتنى شكرتك ، وإن قتلتنى كان حسابك على الله . أما أنا ، فلم أقل لك غير الحقيقة !

وبدا على بوجاتشيف ان صراحتى تفاجئته ، فقال وهو يربت على كفى : « ليكن ما تريد ! .. أنا إن عاقبت كان عقابى صارما ، وإن عفوت كان عفوى كاملا .. اذهب إلى حيث تريد ، وافعل ما يبدو لك ! .. تعال ودعنى فى القصد . والان امض إلى النوم . فأننى نمت ايضا ! .. » .

تركت بوجاتشيف ، وخرت إلى الشارع .. كان الليل هادئا ، وباردا ، والقمر والنجوم تلعب فى السماء ، وتفرق الساحة الكبرى والمشفة بالنور .. كان كل شىء فى الحصن يبدو ساكنا . وكانت نوافذ الحانة وحدها مضاءة ، تخرج منها اصوات بعض المتأخرين من اللاهين . ونظرت إلى بيت القس ، فرايت الأبواب والنوافذ مغلقة .. وإن كان كل شىء يبدو فى الداخل ساكنا !

ووصلت إلى مسكنى ، فوجدت سانيليتش فى حالة من القلق العميق ، فلما علم أن حرتى قد ردت إلى ، فرح فرحا عظيما . وقال وهو يصرخ : « الحمد لله ! .. ستترك الحصن منذ الفجر ، ونمضى إلى حيث يشاء الله ! .. لقد أحضرت لك با عزيزى شيئا تتعشا . فتعال كل ، ثم نم إلى الصباح ثوما هادئا ، كنوم القار فى أحضان القس ! » .. فعمبت بتصيحته ، وبعد أن التهمت الطعام فى شهوة كبيرة « غفوت على أرض الغرفة محطم الجسم والروح جميعا .

- ٩ -

## فراق تحت حكم الظروف!

« آواه ما احلاه ..

« يوم عرنتك فيه .. يا حبيبتي الجميلة !

« وآه ما اشقاني ، إذا فارقك الآن .

« لكانني أفارق روعي ! » - أغنية

ايظنني ترع الطبل بكرة في الغداة ، فذهبت إلى مكان الاجتماع ، فرأيت مصابات بوجاتشيف تصطف عند المشقة ، التي ما زال ضحايا الهمس مملتين عليها . ورأيت القوازي قد امتطوا خيولهم ، والجنود قد حملوا اسلحتهم ، والرايات تخفق ، وعددا من المدافع - بينها مدفعا - قد شددت إلى العربات .. ورأيت السكان قد تجمهروا جميعا ينتظرون - كذلك - خروج الغاصب . ورأيت قوزاقيا واقفا أمام درج الباب ، ممسكا بمقود حصان اسهب رائع من عرق الكرخيز . وتلفتت أبحت عن جثمان الأميرة ، فوجدت أنهم قد وضموه جانبا ، وغطوه بغطاء . واخيرا خرج بوجاتشيف من الدهليز ، فرفع الجمهور قبماته . وتوقف بوجاتشيف على درج الباب بحسب الناس . وناولته أحد « القدماء » (١) كيسا مملوا بالدنانير ، فأخذ بوجاتشيف يرميها إلى الجمهور بكلتا يديه ،

(١) جمع « مدم » .. وهي رتبة عسكرية ..

وأخذ الناس يسارعون إلى تلقفها متزاحمين ، مصوتين .. وأصيب بعض الأشخاص من جراء ذلك بأذى غير يسير . ولتى رنات بوجاتشيف بصطفون حول زعيمهم ، وكان من بينهم شفايرين . التقت نظراتنا ، واستطاع ان يقرأ في عيني الاحتقار والازدراء ، فأشاح وجهه حائقا ، متظاهرا بالهزء والسخرية . ولحنى بوجاتشيف بين الجمهور، فعيانى بحركة من رأسه ، ثم نادانى إليه ، وقال :

- اسمع ! .. اذهب حالا إلى اورنبورج ، وقل للحاكم وسائر القادة ان ينتظروني هناك في غضون أسبوع .. انصحهم ان يستقبلوني كما يستقبل الإبناء اباهم في حب وخضوع . وبغير ذلك ، لا يستطيعون ان يوقوا انفسهم عذابا شديدا .. على الطائر اليمون يا صاحب التباله !

ثم التفت إلى الجمهور ، وقال وهو يشير إلى شفايرين : « اسمعوا يا ابناي ، هذا هو آمركم الجديد ، فاطيعوه في كل امر ، وهو المسئول امامي عنكم وعن الحصن ! » .

سمعت هذا الكلام في هول مظلم . ايصبح شفايرين آمر الموقع ، وتظل ماريا اباقوفنا تحت سلطانه .. ربه ! ما سيكون إذن من أمرها !

ونزل بوجاتشيف عن درج الباب ، واتوه بالحصان ، فامتطاه في خفة ورشاقة ، دون ان ينتظر معونة القوزاقيين اللذين ارادا ان يسنداه .. وفي هذه اللحظة رأيت سافيلتش يتحرك الصفوف ، ويقترب من بوجاتشيف ..

ولم أستطيع أن أحزر ما يريد . وسأله بوجاتشيف في وقار :  
« يا هذا ؟ » .

فأجاب سافيليتش : « تفضل بقراءة الورقة ، فتعلم  
المسألة ! » .. فتناول بوجاتشيف الورقة ، وظل مدة طويلة  
بمحصها في كثير من الجهد ، ثم سأله : « لماذا خطك ردىء إلى  
هذا الحد ؟ » لم تستطع عينا أن تفك هذه الكتابة السيئة .  
أين رئيس أمعاء المر ؟ » .

فما أن قال بوجاتشيف ذلك ، حتى تقدم شاب نشيط  
يرتدى بزة عريف . فقال له الفاصب وهو يناوله الورقة :  
« اقرأ بصوت مرتفع ! » .. وكنت قلنا ، أنحرق شوقا إلى  
معرفة ما عسى أن يكون سافيليتش قد كتب لبوجاتشيف .  
واخذ أمين السر يتهمج جهارا : « ثوبان للمنزلة : أحدهما من  
ططن ، والثاني من حرير مقلم . المجموع : ٦ روبلات » .

فقال بوجاتشيف وهو يقطب حاجبيه : « ما معنى هذا  
كله ؟ » .

فأجاب سافيليتش بهدوء : « قل له أن يتم القراءة ! » .  
واستأنف أمين السر يقرأ : « بزة عسكرية من صوف  
أخضر ناعم » قيمتها ٧ روبلات .. سروال من صوف أبيض ،  
قيمته ٧ روبلات .. إثنا عشر قميصا من كتان هولندي  
بأكمامها ، قيمتها ١٠ روبلات . حتيبة تحتوي على عدة  
تحضير الشاي ، قيمتها روبلان ونصف .. » .

فقاطع بوجاتشيف ، قائلا : « ما هذا الهدر السخيف ؟ ..  
ما شأنى وشان الحقائق والسر اويل ذات الأكمام ! » ..

فتتخنع سافيليتش يريد أن يشرح المسألة ، وقال : « هذه  
- إن امرت - قائمة بأشياء سيدى التى نهبها اللصوص » .  
فصرخ بوجاتشيف بلهجة متوقدة : « أى لصوصى تعنى ؟ » .  
- معذرة ! .. لقد افلت هذا الكلام من لسانى .. لا أريد  
أن أقول اللصوص ، إنهم رجالك المفاوير ، قد نهبونا قليلا .  
لا تفضب ، فلكل جواد كوبة ! .. مره ان يتم القراءة .  
نقال بوجاتشيف : « هيا أتم القراءة ! » .

واستمر أمين السر يقرأ : « غطاطان ، أحدهما هندى  
والثاني من ططن قيمتهما ٤ روبلات . معطف من فراء الثماب  
مبطن بجوخ قمرى ، قيمته ٤٠ روبلا . ثم معطف من جلد  
الأرنب ، قدم إلى سماعتكم فى الفندق ، وقيمته ١٥ روبلا » .

فصرخ بوجاتشيف وعيناه تقدحان شررا : « يا هذا  
الهدر ؟ » .

اعترف باننى خفت على خادمى . وقد أراد أن يسترسن  
فى شروح جديدة ، إلا أن بوجاتشيف قاطعه ، وهو ينزع  
الورقة من بين يدى أمين السر ويرميها فى وجهه ، « كيف  
تجرؤ على إزعاجى بمثل هذه الترهات ، أيها المعجوز المجنون .  
نهبوك ؟ .. كلام جبيل . الا تحمد الله ، أيها المعجوز الهرم ،  
على أنك لم تشق ، أنت وسيدك ، إلى جانب هؤلاء الخونة !  
.. معطف من جلد الأرنب ! .. أريد أن أريك معطفا ..  
هل تعلم أن فى إمكانى أن أمر بسلخك حيا ، ويدبح جلدك  
لمنع منه معطف ؟ » .

فاجاب سافيليتش : « إنك تعلم إننى خادم ، وان على ان احافظ على اموال سادتى . »

وبدا بوجانشف فى وضع من يريد أن يحافظ على وفاره وجلاله ، فاشاح بوجهه ، ومضى - دون أن يضيف إلى ما قاله كلمة واحدة - يتبعه شغابرين و « القدياء » . وغادرت العصابة الحصن فى نظام تام ، وتبعها الشعب يريد أن يشيع بوجانشف . وبقيت وحيدا مع سافيليتش . وكان المسكين لا يزال ممسكا « بالقائمة » يتألمها فى أسف عميق . . لقد أراد أن يستفيد من حسن التفاهم الذى مسك بينى وبين بوجانشف ، إلا أنه لم ينجح فى هذا المشروع المعتقد . واخفت الومه على فرط إخلاصه هذا . ولم استطع أن أمنع نفسى عن الضحك . فقال : « اضحك ما شئت يا سيدى ، ولكن سترى حين ينبغى لنا أن نعوض عن هذه الأشياء » أن الامر ليس مضحكا إلى هذا الحد ! .

\*\*\*

وسارعت إلى بيت القس آملا أن أرى ماريا ايفانوفنا . فأبلغتنى زوجته نيا حزيقا . قالت أن ماريا ايفانوفنا أصيبت بحمى شديدة فى الليل ، فقدت وعيها ، وكانت تهذى . وأدخلتنى زوجة القس إلى غرفة ماريا ايفانوفنا ، فاقتربت من سريرها على مهل . إن التغير الذى ألم بعلامح وجهها ليصعقتى دهشة . . لم تستطع المريضة أن تعرفنى . . بقيت أمامها مدة طويلة ، دون أن أصفى إلى ما يقوله الأب حراسيم وزوجته الطيبة ، واغلب الظن أنهما كانا يحاولان مواساتى .

وحاصرتنى افكار سود : إن وضع هذه اليتيمة المسكينة ، وبقاءها وحيدة بين عصاة اشرار ، ثم عجزى عن القيام بشئ فى سبيلها . . إن ذلك كله ليملأنى رعبا . على أن شغابرين هو الذى كان يقلقنى أكثر من أى شئ آخر . . لقد أولاها الناصب سلطات واسعة ، واصبح أمر الموقع الذى تقيم فيه هذه الفتاة البائسة ، التى يكرهها ويحقد عليها . فهو إذن قادر على ان يفعل كل شئ . ماذا يجب أن اعمل ؟ . كيف اساعد ماريا ايفانوفنا ؟ كيف انقذها من يدى هذا الفاجر ؟ . لم يبق إلا وسيلة واحدة : ان امضى إلى اورنبورج فى اقرب وقت ، لأعجل تحرير ا بيلوجورسكيا ) ، واساهم فى ذلك بكل ما اوتيت من قوة . . عزمت أبرى على الذهاب إلى اورنبورج حالا ، فاستأذنت القس وأكولينا بامفيلوفنا ، وأوصيتهما خيرا بتلك التى أعدتها منذ الآن زوجة لى . وتناولت يد الفتاة البائسة ، فقبلتها مفرقا إياها بالدموع .

وقالت امرأة القس وهى تشيرنى إلى الباب : « وداعا يا بنرو اندرييفتش ، قد نلتقى فى أيام افضل . لا تنسانا ، واكتب إلينا ما استطعت ! . . لم يبق للمسكينة ماريا ايفانوفنا غيرك نصيرا وحايبا ! » .

وخرجت من الساحة الكبرى ، وتوقفت لحظة احبب المشقة ، ثم تركت الحصن متجها نحو ( اورنبورج ) ، بصحبى سافيليتش الذى يفعل كل ما أقص . وكنت أسير غارقا فى تلهاتى ، حين سمعت ورائى - فجأة - وقع حوائر حصان . فالتفت فإذا بتوزاتى قادم من الحصن يمشو ورائى على



حصان . وقد امسك بلجام حصان آخر ، وجعل يشبر إلى .  
فتوقف عن المسير ، وما لبثت أن عرفت فيه « الوكيل » .  
فلما وصل إلى ، نزل عن حصانه ، ومد إلى لجام الحصان  
الآخر ، وهو يقول : « إن جلالتك - يا صاحب النبالة - بهدى  
إليك حصانا ، « ويطلع » عليك معطفا ! » . وكان على سرج  
الحصان معطف من جلد الخروف !

وأضاف وهو يتهته ، قائلا : « لم انه اهدى إليك كيسا  
من المال ، إلا أئني أضعته في أثناء الطريق » فأرجو أن  
تصفح عني ! » . فرماه ساقيلبتش بنظرة ارتبابا ، ودمدم  
قائلا : « أضعتها في أثناء الطريق » . فما الذى يرن إذن في  
صدرك ؟ . لا تستحي ؟ . فأجاب الآخر معترضا دون أن  
ينتابه أى اضطراب : « ما يرن في صدري ؟ . عفا الله عنك أبها  
الشيخ ! . إن ما تسمعه هو رنين اللجام لا رنين كيس ! » .

فقطعت المناقشة بقولى : « حسنا . . أشكر عني من  
أرسلك . أما الكيس الضائع ، فحاول أن تجده ، وليكن عديا  
منى إليك ! » . فقال وهو يدور بحصانه : « ألف شكر  
يا صاحب النبالة . سأدعو لك بالخير على الدوام » .

وما إن قال هذا الكلام ، حتى قفل يمدو خيما ، وقد وضع  
إحدى يديه على صدره . ثم اخفى في طرفة عين . فارتدبت  
المعطف ، وامتطيت صهوة جوادى ، واضعا ساقيلبتش

ورائي . وقال الرجل العجوز : « أرايت يا سيدى ؟ . إن  
تقديم قائمة الحساب لهذا الحقيق قد أتى أكله ! . لقد أنبىه  
ضميره وندم على صنعه ! . . ورغم أن هذا الحصان الباشكبرى  
ذا القوائم الطويلة ، وهذا المعطف المصنوع من جلد الخروف ،  
لا تساوى قيمتها نصف قيمة ما سرقته منا اللصوص ،  
وما طاب لك أن تهديه إليه بإردائك ، فقد يفيدنا . والحاذق  
من يحصل من دينه الميت أى مبلغ يقدر على تحصيله ! » .

- ١٠ -

## حصار أورنبورج

« بعد أن احتل الجبال والوديان ،  
 « القى نظرة من عل ،  
 « كالنسر ، على المدينة ..  
 « وأمر بإقامة خيمة وراء المعسكر ،  
 « نخباً فيها المدافع ، لتقاد ليلاً  
 « إلى أمام المدينة » -

كيراسكوف

فلما وصلنا إلى أورنبورج ، رأينا جمهوراً من المحكومين  
 بالاشغال الشاقة - الذين حلقت رؤوسهم وشوهت وجوههم  
 بملاقط الجلادين - يعملون في تحصين المدينة ، تحت رقابة  
 عدد من جنود الموضع . فكان بعضهم ينقل - على عربات  
 صغيرة - « الصوالة » التي تبلى الوادي ، وبعضهم الآخر يحفر  
 الأرض .. وكان عدد من البنائين يأتي إلى الأسوار بالآخر ،  
 بقوى متاريس المدينة .

واستوقفنا الحراس على الأبواب ، وطلبوا إلينا جوازات  
 السفر . فلما علم الرقيب أنني أت من ( بيلوجورسكايا ) ،  
 مضى بي إلى بيت القائد رأساً .. ووجدت القائد في حديثه ،  
 ينحس أشجار الفلاح التي عرثها أيام الخريف ، ويغطيها  
 بالقش في كثير من العناية ، مستعيناً ببسنتاتي مجوز كان

وجهه يشرق بالطمأنينة والعافية والبساطة . وظهرت عليه  
 أمارات السرور لرؤيتي مرة أخرى . واخذ يسألني عن  
 الأحداث النظمية التي شهدها ، فقصت عليه كل شيء  
 تفصيلاً . فأصغى إلى كلامي في اهتمام كبير ، مع استمراره  
 على قطع الأنغمسان اليابسة . ثم قال حين أنهيت قصتي  
 الحزينة :

— مسكين ميرونوف ، أنني أرى له !.. كان دابنا ممتازاً  
 .. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة . ما إبراهيم في تبخ  
 الكهنة !.. وماذا هل بمائسا « ابنة الداهية الرئيس » (١) .

فأجبت بأنها بقيت في الحصن في كنف امرأة القس .  
 فقال « آي ، آي !.. لا يمكن الاثنان إلى هؤلاء اللصوص !  
 .. ما مسير هذه البنت المسكينة » (٢) .

فأجبت بأن بيلوجورسكايا ليست بعيدة ، وأن سعادته  
 قد لا يتخلف عن إرسال فرقة إليها لتحرير السكان المساكين .  
 فمز القائد اللواء رأسه ، وبان على وجهه أنه قير مطمئن . ثم  
 قال : « سنرى ، سنرى .. سنتكلم في هذا من بعد . والان  
 ادعوك إلى تناول الشاي . سيجتمع اندي مجلس الحرب باد  
 كليل ، وفي إمكانك أن تؤتينا اندند مالمومات ذكيكة أن هذا

(١) « كان ضابطاً ممتازاً ، وكانت مدام ميرونوف سيدة مثقفة .  
 ما إبراهيم في تبخ الكهنة !.. وماذا هل بمائسا « ابنة الضابط الرئيس » ؟  
 (٢) « لا يمكن الاعتماد على هؤلاء اللصوص !.. ما مسير هذه البنت  
 المسكينة ! » .

الحكيم يوجاتشيف وان جيشه .. والان يمكنك ان تذهب لترتاه قليلا (١).

ومضيت إلى المسكن الذي أعدوه لى ، فرأيت سافيليتش بسبيل تهينة إقامتنا فيه . وكنت فى حالة نظيمة من القلق وفراغ الصبر . وفى وسع القارئ أن يتخيل بسهولة إثنى لم اتخلف عن حضور المجلس الذى كان مقدرا أن يكون له فى مصيرى تأثير كبير . فوصلت إلى بيت اللواء فى الساعة المحددة . فوجدت هناك أحد موظفى المدينة ، ومدير الجمر ، ووجدت عجوزا قصيرا بطينا ، يرتدى ثوبا ملونا من « البروكير » اللامع ، اخذا يسألنى عن مصير ايفان كوزميتش ويسميه « اشيبينه » . وقاطع قصتى عدة مرات بأسئلة وملاحظات صميقة ، إن لم تدل على أنه رجل مثقف فى علم الحرب ، فهى تدل على أنه ذو فكر ثاقب وفكاه منطور . وفى أثناء ذلك توافد سائر المدعوين . فلما أخذ الجميع أماكنهم ، وقدم إلى كل منهم قدح من الشاي ، أخذ القائد يمرض الموقف فى وضوح وتصيل . وقال أخيرا :

— والان أيها السادة ، يجب أن تقرر : هل نسطنع مع العصاة أسلوب الهجوم أم أسلوب الدفاع ؟ أما الهجوم

(١) « ستوى ، ستوى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والان أدعوك الى تناول الشاي . سيجتمع عندى مجلس الحرب بعد قليل ، وفى امكانك ان تعطينا عندئذ معلومات دقيقة عن هذا الحقيقير يوجاتشيف ومن جيشه .. والان يمكنك ان تذهب لترتاه قليلا » .

عائنه يتبع لنا ان نأهل فى القضاء على العدو قضاء اسرع ، وأما الدفاع فهو أكثر ضمانا وأقل خطرا .. فعلينا إذن بالاتقاع ، وفقا للترتيب القانونى . اى ابتداء بالضباط الصفار .. يا حضرة حامل العلم ، تفضل بإبداء رأيك !

فنهضت .. وبعد أن وصفت يوجاتشيف ومصابقه بكلمات موجزة ، اكتت أن هذا المحتال لا يستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم قطعات نظامية .. ولاحظت على المستمعين أنهم لا يوافقون على رأى هذا البنية . وأدركت أن الموظفين لا يرون فى شخصى إلا شابا جريئا متهورا . وأرتفعت فى الحفيل أصوات دمية ، حتى لقد سمعت أحدهم يقول بصوت منخفض : « هذا طفل غر » . والتفت القائد اللواء نحوى مبتسما يقول : « يا حضرة الضابط حامل العلم .. فى مجالس الحرب ترتفع الأصوات الأولى دائما فى تأييد الأعمال الهجومية . هذا أمر طبيعى ! .. والان فلنستمر فى جمع الآراء . ما رأيك يا حضرة المستشار ؟ » .

فسارع العجوز القصير — الذى يرتدى ثوبا من البروكير — وأفرغ فى جوفه البنية الباقية من قدحه الثالث من الشاي المزوج بكية كبيرة من الكحول ، ثم قال : « اعتقد يا صاحب السعادة ، أن الأمر ليس أمر هجوم ولا دفاع » . فرد عليه اللواء دهشا : « ولكن يا حضرة المستشار ، إن الحرب لا تعرف غير أسلوبين : أسلوب الدفاع وأسلوب الهجوم » . — جربوا ، يا صاحب السعادة : أسلوب الانسداد ! — فتح بفتح ! .. إنه لراى بفيض بالحكمة فى الحرب

اسلوبا ثالثا هو « اسلوب الإفساد » . سنتفح بنصائحك ، وسنظن ان من ياتينا برأس هذا السافل ، يتناول مكافأة قدرها سبعمون روبلا ، بل مائة روبل .. نأخذها من المخصصات السرية ..

فقاطعه مدير الجبرك ، قائلا : « اقبل ان يسمو لى شاه كرخيزية لا مستشارا ، إذا لم يسلما هؤلاء الجبرمون زعيمهم مكتوف اليدين والرجلين ! » فاجاب اللواء ، قائلا : « سنفكر فى هذا الامر ، وسنتحدث فيه مرة أخرى . وإنيما ينفى لنسا - على أية حال - أن نتخذ بعض التدابير العسكرية . ايها السادة ، هلا ادليتكم بأرائكم وفقا للترتيب الصامدى ! »



وجاءت آراؤهم جميعا تعارض رأى ، وذكروا ان القطعت ليست مأمونة الجانب ، وأن الظروف متقلبة ، وأن الحفر واجب .. إلى آخر ما هنالك . لقد كانوا يمتقدون جميعا أن يتعاضدوا فى عصمة المدافع - وراء الاسوار الصخرية العالية - اسلم عاقبة من الخروج إلى الفلاة . واخيرا ، هو اللواء رماذ غليونه ، بعد ان سمع جميع الآراء ، والقى الخطاب التالى : « ايها السادة ، ارانى مضطرا إلى التصريح باتى شخصيا اوافق على رأى حامل العلم موافقة تامة ، لأن هذا الرأى يستند إلى جميع قواعد الخطط الحربية الصحيحة التى تؤثر الاعمال الهجومية على الاعمال الدفاعية دائما ! » .

وهنا توقف من الكلام ، وأخذ يحشو غليونه بالتبغ . وسررت بكلامه هذا الذى تملق كبريائى ، فالتفت نظيرة شامخة على الموظفين .. وكانوا يتهايمسون وقد بدا عليهم القلق والامتعاض .. وادردب اللواء بقول « وهو يطلق زفرة عميقة ، ويرسل إلى السقف سحابة كثيفة من الدخان : « إلا اننى - ايها السادة - لا أجرو على أن آخذ على عاتقى مثل هذه التبعة . فالامر يتعلق بسلامة هذا الإقليم » وقد عهدت إلينا بها مولاتنا الإمبراطورة ، امنا الرؤوم ! .. ولهذا السبب » انضم إلى الأغلبية التى ارتأت ان الخطأ الاسلم عاقبة ، والأمل خطرا ، هى أن ننظر العدو فى داخل المدينة ، وأن نصد الهجوم بالدفعة ، وبالخروج إليه - عندئذ - إذا أمكن ذلك ! » .

ورأيت الموظفين يرشقوننى بنظرة ساخرة بدورهم .. وانتهى الاجتماع .. واستفادت من ضعف هذا المحارب القديم ، الذى قرر - على خلاف آرائه الشخصية - أن يتفاد لرأى انفس جهلة تموزهم الخبرة .

وما ان انتقضت على هذا الاجتماع بضعة أيام ، حتى علمنا أن بوجاتشيف يقترب من ( أورتبورج ) وفقا لومعه .. ورأيت جيش العصاة من أعلى اسوار المتينة . ولاحظت ان عددهم قد زاد مشرة اضعاف ما كانوا يوم الهجوم الأخير الذى شهدته ، وإنهم يملكون مدافع جديدة ، مما استولى عليه بوجاتشيف من الحصون الصغيرة . وتبقتة .. وفكرت فى قرار المجلس العسكري

سجناء وراء اسوار ( اورنبورج ) مدة طويلة ، فكادت ابكي  
حتفا .

ولن اصف حصار اورنبورج ، فهذا من شأن التاريخ .  
ولا يدخل في قصة اسرة . وحسبى ان اقول انه كان شؤما على  
السكان ، بسبب قلة تبصر السلطان . فقد عانى منه  
السكان من الجوع وسائر انواع الكوارث .. واصبحت  
الحياة في اورنبورج بشعة كريمة ؟ .. كان السكان يظفرون  
من غلاء المعيشة ، وكان غلاء نظيفا والحق يقال . وسرعين  
ما اعتادوا على القنابل - التي كانت تسقط احيانا في باحات  
بيوتهم - حتى ان الهجمات التي كان يوجاتشف بشنها  
اصبحت لا تثلث انتباه الناس . وكنت اختلف ضجرا ،  
والوقت يجرى بطيئا ثقيللا .. لم اكن القى اية رسالتك من  
بلوجورسكايا ، فلقد كانت الطرق كلها مقطوعة .  
واصبح انفصالي عن ماريا ايفانوفنا لا يطاق .. كان جهلى  
كل شيء عن مصيرها يعذبني اكثر من أى شيء آخر .  
وكانت تسلينى الوحيدة هى الزهرة على ظهر الحصان ، فقد  
كنت املك - بفضل يوجاتشف - جوادا ممتازا ، كنت  
اقاسمه طعماى الزهيد ، واخرج به من الدبنة في كل يوم  
.. ائبدل مع فرسان العدو طلقة نار . وكان تبادل الطلقات  
هذا ينتهى - عادة - بنصر العصاة الذين لم يكونوا يشكون  
جوعا ولا عطشا ، ولا ضعفا فيما يستطيعون من دواب !

كانت فرقة الفرسان الهزيلة - التي نلكتها - لا تستطيع  
ان تصمد لهم ، ولا ان تغلب عليهم . وكانت مدفعتنا

الجائعة نخرج يدورها في بعض الاحيان ، إلا ان عمق طبقة  
الثلج المتراكم على الأرض لم تكن تتيح لها التغلب على  
فرسان العدو المبحثرين . فكانت المدفعية تلقى قذائفها عشا  
من أعلى الاسوار ، حتى إذا خرجت إلى ميدان القتال ،  
غاصت في الثلج ، ولم تستطع التقدم بسبب ضعف الخيل  
التي تجرها .

تلك كانت خطفتنا الحربية !.. وذلك كان ما اسباه موظفو  
( اورنبورج ) بالحكمة والحدر والتبصر !

وفي ذات يوم ، بينما نحن نشقت ونصد قطعة كبيرة من  
قطاعات العدو ، بصرت بقوتازى يتى وراء رؤسائه ، فهبت  
بان اضربه بسيفى التركى ، لولا انه خلق قبعته منجاة ، وهتف  
بى : « مرحبا بىرو اندريفتش .. كيف حالك ؟ » .. فعرفت  
فيه الوكيل ، وسررت برؤيته . وقلت : « مرحبا بك  
يا ماكسينتش ، هل تركت بيلوجورسكايا منذ مدة طويلة ؟ » .

- كلا يا عزيزى بىرو اندريفتش .. كنت فيها امس ،  
وانا احمل رسالة إليك !

فصحت وقد احمر وجهى من فرط الانفصال : « اين  
هى ؟ » .

قال وهو يضع يده على صدره : « هى معى ، وقد وعدت  
بالاشا ان اوصلها إليك باية وسيلة .  
ورقة مطوية ، ثم مضى يمدو .

وفضضت الرسالة ، فقرات فيها الأسطر التالية وأنا ارتجف :

« لقد شاء الله أن يحرمنى أبى وأمى دفعة واحدة ، ولم يبق لى على الأرض أهل ولا من يحمنى . وإنما اكتب إليك الآن ، لعلنى بأنك كنت تبدي اهتماما بى ، ولأنك أهل لمعونة جميع الناس . أرجو من الله أن تصل إليك هذه الرسالة بوسيلة من الوسائل . وقد وعد ماكسيمتش بأن يسلمك إيها . لقد سمعته «بالأشياء» يقول أنه كثيرا ما يراك حين تخرج من الأسوار ، وأنت لا تحافظ على نفسك فكأنك لا تفكر فى أولئك الذين يدعون الله ليلا نهار أن يحفظك ويصونك ، والذنبوع تبالأ ماقيمهم .

« لقد ظللت مريضة خلال مدة طويلة . وحين أبليت من مرضى ، جاء اليكسى ايفانتش - الذى حل محل محصل المرحوم والدى - فأجبر الأب جراسيم على أن يسلمنى إليه ، مهددا إياه ببوجاتشيف . فانا أسكن الآن منزلنا ، إلا أننى مراقبة ، واليكسى ايفانتش يحلنى على الزواج به ، ويدعى أنه أنقذ حياتى بسكوته على كذب آكولينا بامفلوفنا ، التى زعمت للمجرمين أننى ابنة أخيها . ولكن الموت أسهل على من الزواج برجل مثل اليكسى ايفانتش . . أنه يعاملنى معاملة قاسية ، ويهددنى بأنه سيقودنى إلى مصكر اللص ، لائقى هناك المصير الذى قمينه ليزاقنا خارلوف ، إن لم أرجع عن قرارى وأقبله زوجا . وقد طلبت إليه أن يدعى أفكر فى

الامر ، فقبل أن ينتظر ثلاثة أيام أخرى ، حتى إذا لم ارتضه بعللا فى نهاية هذه الأيام الثلاثة ، لم يعد عنى البتة .

« يا عزيزى بطرو اندريفتش . . أنك الشخص الوحيد الذى يمكن أن يحمنى ، وأن يعمل شيئا فى سبيل بالنسبة مسكينة . . اطلب إلى اللواء ، وإلى جميع القادة ، أن يرسلوا إلينا نجدة بأقصى سرعة ممكنة ، وتعال أنت إذا أمكن .»

### يتبعك المخاضة • ماريا ايفانوفنا

كدت أجن لدى قراءة هذه الرسالة . وعدت إلى المدينة لا اشفق على حصانى المسكين من وخزات المهاميز . وجهدت انقاء الطريق أن أهدى إلى وسيلة أنقذ بها هذه الفتاة الشقية ، ولكن دون جدوى . فلما وصلت إلى المدينة ، اتجهت إلى بيت اللواء راسا ، ومررت إلى غرفته كالسهم .



كان اللواء يسير فى طول الفرفة وعرضها ، وهو بدخن غليونه ، فلما رأتى ادخل ، توقفت عن المسير . . ولعلله أدهش لما رأى فى وجهى من شرود ، وسألتى - على كل حال - فى غير قليل من اللطف والرفق « عما أتى بى إليه على هذا الوجه من السرعة . .

فقلت : « اننى أتجه إليك ، يا صاحب السعادة ، كما يتجه ابن إلى أبيه . أتوصل إليك أن لا تمنع عنى حبيبك . . إن المسألة تتعلق بسعادة حياتى كلها .»

فقال المعجوز مضطرباً : « ما هنالك يا عزيزي ..؟ ماذا  
استطيع أن أعمل في سبيلك ..؟ قل ! » .

— تستطيع يا صاحب السعادة أن تأمر لي بقطعة من  
الجنود ، وبخمسين قوزاقياً ، أمضى على رأسهم لأظهر  
حصن بيلوجورسكايا !

فظل اللواء يتفكر في : ولعله اعتقد أنني قد كنت صوابي  
— وهو في الحق لم يخطئ كثيراً — ثم قال أخيراً : « ما هذا  
الكلام ..؟ نظهر حصن بيلوجورسكايا ؟ » . فاجبت في  
حماسة : « أتمهد لك بالنصر » دعني أمضى ! .. » فقال وهو  
يهز رأسه : « كلا أيها الشاب .. إن العدو يستطيع — في  
مسافة بعيدة كهذه — أن يقطع جميع طرق المواصلات » وأن  
يحتل النقطة « الاستراتيجية » الأساسية ، فيصل إلى نصر  
كامل . وما دامت المواصلات مقطوعة .. » .

وهنا عراني الخوف ، إذ رأيته يعالج أمور استراتيجية ،  
نقاطه تائلاً : « إن ابنة الضابط الرئيس ميرونوف قد  
بعثت إلى برسالة تطلب فيها أن أهب إلى نجدتها . فإن  
شفايرين يحملها على الزواج به ! » .

— صحيح ..؟ آه من شفايرين هذا ! .. انه عاهر كبير .  
إن وقع يوماً في قبضتي ، فسأقضي عليه بالموت ، ثم أقتله  
رمياً بالرصاص فوق أسوار الحصن .. ولكن إلى أن يحين  
الحين فلننتجمل بالصبر !



وغدت إلى المدينة لا أشفق على حصاني السكين من وخزات الهاميز ..

فصحت وقد خرجت عن طورى : « الصبر ؟ .. ولكنه يكون — أثناء ذلك — قد تزوج ماريا ايفانوفنا ! » فاعترض اللواء يقول : « ليس هذا بالفاجعة العظمى .. إن زواجها بشقابرين — إلى أن يحين الحين — خير لها وأبقى .. لأنه يحميها .. حتى إذا قتلناه لم تعد من يخطبها ! إن النساء الجميلات لا يبقين عوانس مدة طويلة .. والوقوع على زوج اسهل على الأرملة منه على الفتاة العذراء ! »

قلقت وأنا أرغى وأزبد حتما : « أننى افضل ان أموت على أن أتركها لشقابرين ! » فقال الرجل العجوز : « ها ! الآن نهيت .. أنت إذن تحب ماريا ايفانوفنا ! هذا شيء آخر .. ممكن أيها الشاب ! .. ولكننى لا أستطيع أن آمر لك بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا ! .. هذا أمر خطر ، لا أستطيع أن اتحمل تبعته » .. فخفضت راسى ، وقد أخذ منى اللباس مأخذه ، وسيطر على كريب شديد . وفجأة خطرت على بالى فكرة .. وسيرى القارىء ما هى هذه الفكرة ، حين يقرأ الفصل التالى ، كما أن الروائيون يقولون فى الزمان القديم .



- ١١ -

## عند العصاة

« كان الأسد — فى تلك اللحظة —  
 « قد شبع ، مع أنه وحش ضار ..  
 « وساله بصوت رقيق ناعم :  
 « ماذا أنيت تصنع فى مرينى ؟ »

٢ . سوماروكوف

تركت اللواء وهرعت إلى منزلى ، فاستقبلنى سافيليش يدباجنه المعتادة : « أبة لذة تجد فى مقارعة هؤلاء اللصوص ؟ .. ليس هذا شأن سيد مثلك ! .. إن الكارثة تأتى على حين غفلة ! ستموت بلا جأه ولا مجده ! .. أنت تحارب الأتراك أو السويديين ؟ .. إنه لا بد أن يدور على لسانى ذكر هؤلاء الذين تمضى إلى قتالهم ! » .. فقاطعت خطابه بسؤاله عن قدر المال الذى أملك ، فأجاب وقد ظهرت على وجهه علامة الارتياح : « تملك قدرا لا بأس به .. صحيح أن اللصوص لم يدعوا ركننا دون أن ينبشوه ، إلا أننى استطعت أن أخفى قدرا من المال غير يسير ! »

قال ذلك وأخرج من جيبه كيسا مملوءا بالنقود .. قلقت :  
 « حسنا يا سافيليش .. أعطنى نصف هذا المال ، وخذ  
 الباقي ، فاننى ذاهب إلى بيلوجورسكايا

Look Up  
 Digitized by Google



قال العجوز الطيب بصوت مرتجف : « الا تخاف الله يا بنى ؟ .. إلى أين تريد أن تمضى في هذه الظروف التعيسة ، والصوص يحرسون جميع الطرق ؟ .. إذا كان لا يملك أمر نفسك ، فارفق بوالديك على الأقل .. إلى أين أنت ذاهب ؟ ولماذا ؟ .. انتظر قليلا » فسباتى الجيش عما قليل ، فيقبض على جميع المجرمين « وتستطيع — يومئذ — أن تمضى إلى حيث تشاء ! » .

بيد أن فرارى كان قاطعا لا راد له . فقلت : « إن الوقت اضيق من أن يتسع للأخذ والرد . يجب أن أسافر ، فلا أستطيع البقاء هنا .. لا تحزن يا سافيليتش ، فان الله رحيم » وقد تلتقى مرة أخرى .. لا تضن على نفسك بشيء ، ولا تقتصد في إنفاق المال ! .. اسئرن لنفسك ما أنت في حاجة إليه ، ولو اضطررت أن تدفع الثمن أضعافا مضاعفة . اننى أهب لك هذا المسال . وإذا لم أعد خلال ثلاثة أيام .. . فقاطعنى سافيليتش ، قائلا :

— ماذا تقول يا سيدى ؟ .. لن أدعك تسافر وحدك ! .. لا تطلب إلى هذا ، ولو في المنام . إن كنت قد أزمعت سفرا ، فانا رفيقك ، ولو اضطررت أن أمضى سيرا على الأقدام . لن أتركك ! .. أبقى وراء سور من سخر ، وأنت في الفلاة ؟ .. كلا يا سيدى ، اننى لم أجن بعد . أقبل ما شئت يا سيدى ، فلن أتخلف عنك !

وكنيت أمرفا بالتجربة ، أن المناقشة مع سافيليتش ضرب من العبث . فاذنت له أن يمضى يهيم حاجات السفر .

وما هى إلا نصف ساعة ، حتى كنت على صهوة جوادى ، وحتى كان سافيليتش يمتطى كديشا صغيرا هزيلا اعرج ، كان أحد سكان المدينة قد تنازل عنه ، لأنه أصبح لا يملك ما يقيم به اوده .

ووصلنا إلى ابواب المدينة ، فتركنا الخفراء نهر . وغادرنا ( اورنيورج ) .. وكان الفلام يهبط قليلا ، والسبيل إلى ( بيلوجورسكايا ) يمر ببلدة ( بردسكايا ) ، عرين بوجاتشيف ، .. وقد أمحت معالم الطريق تحت الثلج ، إلا أن الأرض كلها كانت تحمل آثار حوافر الخيل ، التى كانت تتجدد فى كل يوم . وكنت أعدهو خيبا ، وسافيليتش لا يستطيع أن يتيمنى — من بعيد — إلا فى كثير من العناء ، ولا ينقطع عن الهتاف بى : لا تسرع كل هذا الإسراع يا مولاي ! .. انشدك المسيح . لا تسرع كل هذا الإسراع ! .. إن كديشى المالك لا يستطيع أن يساير عملائك ذا القوائم الطويلة .. ثم علام هذه السرعة ؟ انحن ذاهبان إلى عرس ! .. اننا معرضان — فى كل لحظة — لضربة فأس .. بترو اندريفيتش ، يا بنى .. بترو اندريفيتش ! .. رياه : إن مولاي الصغير يسمى إلى حتفه ! .. .

وسرعان ما تراءت لنا أنوار ( بردسكايا ) ، فاقتربنا من الوديان التى تحمى البلدة بحاية طبيعية . وكان سافيليتش ما يزال يتيمنى مرددا عويله ونحيبه .. وكنت أأمل أن ادور حول البلدة ، دون أن يلحق بنا أدبى ، ولكننى بصيرة نجاة — على ضوء الشفق — بخمسة من « البوجيك » ساعين

بدبابيس<sup>(١)</sup> .. وكان هؤلاء طليعة الحرس على عرين بوجاتشيف . فلما نادونا - وكنت لا اعرف كلمة السر - حاولت ان اجتازهم صامتا : إلا انهم سرعان ما احاطوا بى والتفوا حولى . وامسك احدهم بلجام حصانى : نللت سيعى . وهويت به على راسه ، فترنخ وترك لجام حصانى : برغم ان قبعته قد صالت راسه من الأذى . واضطرب رفاقه فتراجعوا . فانتهزت هذه الفرصة وهزمت حصانى ، وعدوت مسرعا . وكان يمكن ان يحمنى ظلام الليل الهابط من كل اذى ، إلا اننى التفت ورائى ، فلم ار سافيليتش .. لم يستطيع المجوز المسكين - وهو على ظهر كديشه الاعرج - ان يقلت من ايدى اللصوص .. ما العمل ؟ انتظرت بضع لحظات : حتى إذا اقتنت انهم قد قبضوا عليه : قفلت راجعا ، اسرع إلى نجده .

فلما اقتربت من الوادى ، سمعت لجة من بعيد ، وسمعت جعجة وصوت سافيليتش ، تسارعت خطو حصانى . وما هى إلا برهة ، حتى رايتنى بين رجال الحرس من « الموجيك » ، الذين اوقفونى منذ لحظات .. لقد انزلوا سافيليتش عن كديشه ، وهموا ان يشدوا وثاقه . فلما راونى . اندفعوا إلى وهم بصرخون ، واتزلونى عن حصانى فى طرقة عين . وصرح لى احدهم - وهو رئيسهم فيما يظهر - انه سيقودنا إلى القيصر ، ثم اضاف إلى ذلك قوله : « ومولانا هو الذى سيقدر هل تشسفقان على الفور ، أو تهملان حتى يلوح الفجر ! » .

(١) الدبوس من أدوات الحرب كانت تشبه الهراوة بيد طويلة ..

وكما فعل سافيليتش . لم اظهر أية مقاومة . وقادونا منتصرين مظفرين .

\*\*\*

اجتازنا الوادى . ودخلنا البلدة .. كانت البيوت كلها مضاءة . وكنت تسمع صخبا وجلبة فى كل مكان . ولقيت فى الطريق طائفة كبيرة من الناس : ولكن لم يصر بنا أحد من فرط الظلام . ولم يعرف أحد اننى ضابط من ( اورنبورج ) . وقادونا رأسا إلى عزبة ( اى : دار ) تقوم عند ملتقى عدد من الشوارع ، ويحرس محلها عدد من براميل الخمر ومدفعان . وقتل أحد الموجيك : « هو ذا القصر .. سنبلغ القيصر أمركما » . ثم دخل .. ونظرت إلى سافيليتش . فإذا المعجوز المسكين يصلب ويصلى بصوت خافت . وانتظرنا مدة طويلة . عاد الموجيك بعدها يقول . « ادخل ! » . لقد أمر مولانا بإدخال الضابط .

ودخلت العزبة : أو القصر كما يسميه الفلاحون .. كان بضئ الفرقة قنديلان . وقد نرشت جدرانها بورق ذهبي اللون . وكان كل ما عدا ذلك عاديا مما يوجد فى أية عزبة ، كالمقاعد ، والمتنضدة ، والمفصلة المشدودة بحبل ، والمنشفة المعلقة بمسار ، والمفاعة المزين سطحها بأثنية من الأجر .. وكان بوجاتشيف جالسا فى وقار ، تحت الأبقونات ، وقد ارتدى قتلانا أحمر ، وكسى راسه بقبعة عالية ، ووضع يده على خصره . وكان عدد من كبار انصاره يحف به ، مصطنعا نوعا من الفل الكائب ، والخضوع الأناني . كان وافيحا ان وصول ضابط من ( اورنبورج ) ( انتم انتم فيقولون انفسا

على نحو قوى عنيف، وإن بوجاتشيف كان يستعد لاستقبالى فى وقار . فلما دخلت ، عرفنى على الفور ، فتبدد ما قد اصطغعه من عبوس . وقال : « أهذا أنت يا صاحب النبالة ؟ .. كيف حالك ، وما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » .

— كنت ماضيا لبعض شئونى ، فوافقنى رجالك .

— وما هى هذه الشئون ؟

ولم أعرف بماذا أجيب .. وظن بوجاتشيف أننى أحرص على ألا أبوح بشئ أمام رجاله . فأمرهم بالخروج . فاطاعوا ما هذا النين ظلا فى مكانهما لم يرحا . وقال بوجاتشيف : « تحدث أمامهما ، فإننى لا أخفى عنهما شيئا ! » .

القيت على هذين الرجلين - اللذين يؤثرهما بوجاتشيف - نظرة شدراء . كان أحدهما عجوزا قميا . مقوس الظهر . أبيض اللحية . ليس فيه ما يلفت النظر غير شريط أزرق فوق معطف رمادى . إلا أننى لن أنسى رفيقه ما حيت . رجل فارغ القامة ، ضخم ، عريض المنكبين ، يبدو فى الخامسة والأربعين من عمره ، ذو لحية حمراء كثة ، وأنف غير ذى منخرين ، وقد انتشرت فى جبينه وعلى خديه بقع حمراء - تضى على وجهه العريض المجرد معنى لا يوصف - وقد ارتدى قميصا أحمر ، وجبة كرخيزية ، وسروالا قوقازيا . وعرفت - فيما بعد - أن الأول عريف فار يدعى « بيلوبوردوف » ، وأن الثانى - وهو يدعى « آماناسى سوكولوف » ، ويلقب باسم « خلوبوشا » - مجرم عريق

فى الإجرام . فر من مناجم سيبيريا ثلاث مرات ! .. ولقد أسلمتني رؤية هؤلاء الناس - الذين وفعت بينهم على غير إرادة منى - إلى ذهول عميق ، رغم ما كنت أعانيه من قلق يخفق صدرى . وسرعان ما رددنى بوجاتشيف إلى الواقع . إذ خاطبني بقوله : « تكلم ! ما هو الأمر الذى أخرجك من اورنبورج ! » .

خطر على بالى فكرة غريبة .. قلت - فى نفسى - إن العناية الإلهية إذ ألقتنى مرة أخرى بين يدي بوجاتشيف كانت تنيى لى أن أنفذ الخطة التى عزمتم على تنفيذها . فقررت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة ، فإذا أنا أجيب على سؤاله - قبل أن يتسع وقتى للتفكير فيها أنا مقدم عليه - قائلا : « كنت ماضيا إلى بيلوجورسكايا لنجدة يتيمة يسيئون معاملتها هناك ! » . فقال الفاضل والشرر بغطاير من عينيه : « من ذا الذى يجرو من رجالى أن يسيء معاملة يتيمة ؟ .. قل لى من هو هذا المجرم ، حتى أنزل فيه عقابى الشديد . ولو كان فى حكمة الملك سليمان الحكيم ! » .

— إنه شفابرين .. لقد حجز فى بيته تلك الفتاة التى رايتها مريضة فى منزل امرأة النفس ، وهو يريد أن يكرهها على الزواج به !

قال بوجاتشيف بصوت مدو : « سيرى شفابرين مقبلة غمطه .. سيرى كيف أعاقب القين بركبون هواهم ، وبسيئون معاملة الشعب ! .. لسوء حظهم ! » . ثم جعلت خلوبوشا بصوت متديج : « اسمع لى أن هؤلاء الرجال - جعلت

في تعيين شفابرين آمرا للموقع . وانك تتعجل الآن في الحكم عليه بالشنق . لقد استشرت سخط القوزاقيين حين اقيمت عليهم رئيسا من النبلاء . فلا تستر سخط النبلاء بقتل احدهم لوشابه ترامت إليك ! « ففسال المعجوز ذو الشريط الأزرق :

كان منطلق هذا المجرم المعجوز منجها . وسرت في جسدي كله رعدة قوية ، وأنا أفكر في هؤلاء الناس الذين وقعت في قبضتهم . ولاحظ بوجاتشيف اضطرابي فقال وهو يغمز بعينه : « يخيّل إلى أن المارشال على حق ، فما رأيك ؟ » .

ردت إلى هذه اللهجة الساخرة شجاعتي . فاجبت في هدوء بأنني في قبضة يده ، وأنه يستطيع أن يعاملني المعاملة التي تحلو له . فاجاب بوجاتشيف يقول : « حسنا . .

والآن قل لي ، في أية حال تعيش المدينة ؟ » .

— لا يعوزها شيء عدا الله .

— لا يعوزها شيء ؟ . إن الناس يموتون جوعا !

كان كلام القاصب صحيحا . إلا أنني التزمت ما فطعت على نفسي من عهد . فاخذت أؤكد له أن تلك إشاعة كاذبة ، وأن اورنبورج في بحبوحة من العيش . ففسال المعجوز — معترضا — يخاطب بوجاتشيف : « ها أنت ترى أنه يكذب عليك وجهها لوجه . قد ائقّد إجماع الفسارين على أن المجاعة نهيم على المدينة . وأن الأمراض مفتشية فيها . وأن الناس يأكلون الجثث المتفسخة . وأن الذين يجدون ما يأكلونه من هذه الجيف المتفسخة يعدون أنفسهم سعداء . .

إلا أن سعادته يؤكد أن كل شيء على ما يرام . إذا أردت أن تعدم شفابرين . فاعدم معه هذا الفتى على مشقة واحدة . فما بشمت أحد منهما في الآخر ! » .

وكان أقوال هذا المعجوز اللعين قد أثرت في نفس بوجاتشيف . ولكن خلوبوشا أتبرى يعارض زميله ، لحسن الحظ ، فقال : « اسمع ياناومتش ! . . أنك لا تفكر إلا في الشنق والقتل . أهذه شجاعة ؟ أن المرء — حين يفلسر إليك — ليستفرب أن تكون جبا إلى الآن . إنك من القسرة قاب قوسين أو أدنى . ثم لا يمنعك هذا من تقتيل الناس ! . .

أما يكفك ما أهرقت حتى الآن من دماء ؟ » . فاعترض بيلوورودوف يقول : « من سمعك تقول هذا الكلام ، حسبك قد يسا هبط من السماء ! . . من أين لك هذه الشفقة ؟ » .

— لا شك أنني ارتكبت الخطايا كذلك ( وهذا شدد قبضة يده الناتئة عظامها ، وحسر كفه لكشف من فرأى ذلك الشعر ( الكشيف ) . . إن هذه اليد قد أجزمت إذ سقطت دم

كثير من المسيحيين ، إلا أنني عثقت بأعداء لا بضيوف ..  
فتكثرت بهم مقاتلا في ساحات الوغى . وفي الغابات المظلمة ،  
لا جالسا في بيتي وراء المدفأة .. فتلتهم بغنوس ودبابيس  
لا بوشابات حمقاء !

فأشاح العجوز وجهه . ودمدم بضع كلمات مثل : « حشر  
أنفه » . وهنا صرخ خلوبوشا قائلا : « ماذا نجسمم أيها  
العجوز الهرم ؟ .. سأريك كيف يكون حشر الأنث ! .. انظر  
قليلا . فسيحين حينك . وسيوسل إليك الله من يقطع  
أوصالك ! .. وياتنظار ذلك ، حذار أن أنتف لحبك ! » .

هنا انبرى بوجاتشيف يقول في وقار : « أيها القائدان .  
كفلكما شجارا . لن تكون مصيبة كبرى أن تترنح كلاب  
أورنيبورج كلها على مشنقة واحدة ، وإنما المصيبة الكبرى أن  
تشاجر كلابنا نحن ، وأن يمزق بعضها بعضا . هيا تصالحا » .  
ولم يقل خلوبوشا وبينوبورودوف شيئا ، وألقى كل منهما  
على الآخر نظرة قاتبة . وادركت أن على أن أغمر مجرى  
الحديث ، فقد انتهى بما لا ينبغي . فالتفت نحو بوجاتشيف ،  
وقلت له بلهجة مرحة : « آه ! .. نسيت أن أشكر لك مدبك !  
الحصان والمعطف . لولاك لما وصلت إلى المدينة ، ولقضيت  
في الطريق من شدة البرد » .

ونجحت خطئي ، وظهرت على بوجاتشيف أمائر المرح  
والفرح . وقال وهو يغمز بعينه : « من زرع حصد .. ولكن

قل لي الآن : ماذا يعنيك أن يسيء شفايرين معاملة هذه الفتاة ،  
أو ألا يسيء معاملتها ؟ .. أكون عاشقا مولها يا عزيزي ؟ » .

— هي خطيبتى !

قلت ذلك إذ لاحظت أن مزاح مضيئي قد تغير تغيرا  
مواتيا . وإذا لم أجد ما يدعو إلى إخفاء الحقيقة عنه ، فينت  
يقول : « خطيبتك ؟ .. لماذا لم تقل لي هذا من قبل ؟ .. إذن  
سنزوجه ! .. سنحتفل بمرسك ! » . ثم اتجه إلى  
بيلوبورودوف . وقال : « اسمع يا فلد مارشال ! .. أنا  
وصاحب النباله رفيقان قديمان . سنتناول الآن طعام  
العشاء . وغدا يخلق الله ما لا تعلمون ! » .

\*\*\*

وددت لو أستطيع أن أرغض شرف هذه الدعوة ، إلا أن  
مجرد التفكير في ذلك كان خطرا ، وأت صبيتان من القوزاق  
— هما ابنتا صاحب البيت — ففرشنا المائدة بغطاء أبيض ،  
وجاءتا بخبز وحساء وبعدد من زجاجات البيرة والفودكا ..  
كانت هذه هي المرة الثانية التي أواكل فيها بوجاتشيف  
ورفاقه العظيمين . وامتدت هذه الوليمة — التي شاركت  
فيها على غير إرادة مني — إلى ساعة متأخرة من الليل .  
وأخذت الخمر تفعل فعلها في الرؤوس ، فآذا بوجاتشيف  
يفقو في مكانه . ونهض رفاقه وأومأوا إلى بضرورة إخلاء  
المكان ، نهضت وسرت في أثرهم . وأصدر « خلوبوشا »  
أمره إلى الخفير بأن يقودني إلى دائرة الشرطة . حيث وجدت  
مناقيليتش . وتركنا هنالك وحيدان . بعد أن أجبنا أسئلة

الباب علينا ، وكان « مرشدي » من شدة الدهشة لكل ما وقع لنا ، بحيث لم يطرح على أى سؤال ، واضطجع في الظلام ، وظل مدة طويلة من الوقت يتأوه ويطلق من صدره زفرات حرى . ثم قام وأخذ يشخر ، بينما كتكت غارقا في ناملاتى التى أرقنتى الليل كله .

حتى إذا طلع الصباح ، جاء احدهم يدعوتى إلى اخاء بوجاتشيف ، فمضيت إليه . ورايت على الباب عربة شنت إليها ثلاثة احصنة تنرية . وكان الشعب محتشدا في الشارع ، ولقيت صاحبي في الدهليز مرتديا ثياب السفر : معظما من فراء ، وقبعة كرخيزية . ورايت رفاق البارحة يحفون به . وقد اصطنعوا نوعا من الذل والخضوع لا يتفق مع كل ما شهدته بالأمس .. وحياني بوجاتشيف في مرح . وأبرئى بان اصعد العربة ، ففعلت . ثم صعد هو إليها ، وصاحاح بالترى ذى المنكبين العريضين الذى يسوق الخيل : « إلى بيلوجورسكايا ! » .

وخلق قلبى . وتحركت الخيل ، ودق الجرس ، وسارت العربة ، نسمنت صوتا اعرفه كل المعرفة ، ينادى : « تف ! تف ! » .. ورائنا سافيليتش يمدو إلى لقائنا ، غاوقت بوجاتشيف الخيل .

— أتركنى وحدى باعزيرى بنرو اندريغتش ؟ .. أتتركنى وحدى في هذه السن بين هؤلاء المج .. ؟!

قال بوجاتشيف : « هذا أنت أيها اليوم الهرم ! .. على هذا النحو إنما أراحت مشيئة الله أن نلتقى مرة أخرى ! .. »

هيا اصعد إلى جانب السائق ! » . فصدع سافيليتش بالأمر ، وهو يقول : « ألف شكر يا سيدى ، ألف شكر يا مولانا . يا اباانا الرحيم . أسأل الله أن يمد عمرك حتى تبلغ مائة عام ، جزاء لك على أنك واسيتنى واشفقت على عجوز مثلى . سادعو لك بالسلامة ما حييت ، ولن أجيء بعد الآن على ذكر المعطف المصنوع من فراء الأرنب ! » .

\*\*\*

كان يمكن أن يحقق ذكر هذا الفراء بوجاتشيف ، إلا أن القاص لم يسمع هذا الكلام لحسن الحظ ، أو أنه احتقر هذه الإشارة التى جاءت في غير محلها فلم يولها اهتماما . وأخذت الخيل نعدو . وكان الناس يتوقفون في الشارع وينحنون في تحية عميقة ، وبوجاتشيف يوزع التحيات ذات اليمين وذات الشمال . وما هى إلا لحظة ، حتى خرجنا من البلدة سائرين في طريق مستقيم .

سهل على القارئ أن يفهم ما كتبت اعانيه في تلك اللحظة من مشاعر .. بعد ساعات قليلة سألنى تلك التى كنت اعتقد اننى قدتها إلى الأبد .. وحاولت أن أتصور اللحظة التى سنلتقى فيها . وفكرت في هذا الرجل الذى يقبض على نامية محيرى ببديه ، والذي أصبحت — بتعاون ظروف عجيبة — مشدودا إليه برابطة خفية . وتذكرت القسوة المنهورة والفرائر الدموية ، التى تضطرم في نفس هذا الذى نطوع لإنقاذ حبيبتى ! .. كان بوجاتشيف يجهل أنها ابنة الضابط الرئيس ميرونوف . وفى واقع حزين — إذا هو أخرج — أن يكشف له عن هذه الحقيقة . وفى واقع

بوجاتشيف ان يطلع عليها بوسيلة اخرى .. فماذا يكون  
مخير ماريا ايفانوفنا في الحال ؟ .. سرت في جيبى كله  
تشعيرة قوية ، وانتصب شعر رأسى ..

\* \* \*

ونجاة : قطع بوجاتشيف تأملاتى ، بان طرح على هذا  
السؤال : « فميم يفكر صاحب النبالة ؟ » « فأنجبه قائلا :  
« فميم افكر ؟ .. افكر فى اننى ضابط نبيل ، كنت بالامر  
احاربك ، فإذا أنا اليوم أسافر فى عربتك ، وإذا سعادة حياتى  
كلها رهن مشيتك ! » .. وهاد بئالتى : « أخالف أنت ؟ »  
فأنجبه بانئى . وقد أطلق سبيلى فى المرة الاولى : أصبحت  
أطمع .. لا فى غنوه فحسب ، بل فى معونته كذلك .

قال الغاصب : « شهد الله أنك على حق . لقد رايت  
كيف كان رجالى يرمقونك بنظرات شذراء ، حتى أن العجوز  
زعم - فى هذا الصباح نفسه - أنك لست إلا جاسوسا ،  
وأن الواجب يقضى أن تنكل بك وأن نأمر بشنقك . إلا اننى  
رقضت أن أوافقه على ذلك . ( هنا خفض صوته حتى لا يسمعه  
سانيليتش والتترى ) لائتى مازلت اذكر قدح الخمر الذى  
قدمته لى : والفراء الذى أهديته إلى . ومن هذا يتضح لك  
اننى لست شيطانا يمتص الدماء كما يتصور أصحابك ! »  
تفكرت الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، ولكننى لم أر من  
الضرورى أن أناقشه فى رأيه ، فسمكت ولم أجب بشيء .

وبعد لحظات من الصمت سألتنى بوجاتشيف : « ماذا يقولون  
عنى فى اورنبورج ؟ » .

- يقولون إن الثغلب عليك ليس بالامر السهل . الحق  
أنك غرضت نفسك !

نما إن قلت هذا الكلام ، حتى انبسطت أسارى  
بوجاتشيف وأرتاح لما حقق طموحه من نصر . فقال جدلا .  
« نعم يا عزيزى .. اننى أجيد فن الحرب : .. هل يعلمون فى  
اورنبورج شيئا عن النتيجة التى أسفرت عنها معركة  
( يوزيغيا ) ؟ .. هل يعلمون اننى قتلت أربعين تساندا  
( جنرالا ) . وأمريت أربع فرق ؟ .. ثم ما رايك أنت ؟ هل  
يمكن أن يقاس بى ملك بروسيا ؟ » .

بدا لى تبجح هذا اللص مضحكا ، فسأله : « وأنت  
ما رايك ؟ .. هل تمتد أنك تستطيع الانتصار على  
فردريك ! » .

- على فيدور فيدوروفتش ؟ .. ولم لا ؟ .. لقد انتصرت  
على قادتكم . وقادتكم هؤلاء كانوا قد انتصروا عليه ! .. لقد  
كان الحظ حليفى فى جميع المعارك حتى الآن . ولكن مهلا !  
سترى ما يحدث حين أتجه إلى موسكو !  
- إذن فأنت تفكر فى الذهاب إلى موسكو ؟

هنا سمع وجه بوجاتشيف لحظة : ثم قال وقتئذ خفض  
صوته : « الله أعلم ! .. ما كل ما يمتنى الخمر يمتنى الله ! »

حريتي محدودة ، فرجالى مسروقون فى الخبز . وهؤلاء اناس اندال . يجب ان اكون بقطا .. لسوف يعيدون رؤوسهم بتسليم راسى عند اول هزيمة ! » . فقلت : « اليس من الاسلم إذن ان تتركهم طائعا قبل ان يخونوك . وان تمضى إلى الإمبراطورة لتلمس عفوها ؟ » .

لمابتسم بوجاتشيف ابتسامة من أفاق من سكرته . ثم قال : « لا . لقد فات أوان التوبة .. لن يعنى عنى . سامضى فى عملى كما بداته . ومن يدري : فقد أفوز - ألم يستطع جريشا اوتربيف ان يتسلم العرش بموسكو ؟ » .

— ولكن ألا تدري كيف كانت خاتبته لا .. لقد رموه من النافذة .. ذبحوه ، حرقوا جسمه ، شحنوا برماد جنسه احد المدافع ، وأذروه فى مهب الريح !

قال بوجاتشيف فى نوع من الالهام الوحشى : « اسمع ! .. سأروى لك قصة سمعتها فى طفولتى من عجوز كلموكية : » قال النسر للغراب فى ذات يوم : قل لى أبها الطائر المعجوز ، كيف تعيش أنت ثلاثمائة عام ، ثم لا أبلغ أنا من العمر إلا ثلاثة وثلاثين عاما على أكثر تقدير ؟ » .. فاجاب الغراب : « ذلك أنك يا عزيزى تشرب دما حيا ، بينما أكل أنا الجيف » . فقال النسر : « سأفعل مثلما تفعل » . ومضى الغراب والنسر معا ، فإذا هما يريان حصانا ميتا ، فهبطا إليه وانقضا عليه . أما الغراب فأخذ يفقر ويمتلئ . أما النسر فذاق الجيفة مرة أولى ، فمرة ثانية ، ثم حرك جناحيه ،

وقال لرقيقته : « لا ياعم ! .. لأن أشرب الدم سأخنا ولو مرة وحيدة أنضل من أن اطعم الجيف ثلاثمائة عام . والمقو على الله ! .. كيف ترى هذه القصة الكلموكية ؟ » .

قلت : « جميلة جدا .. ولكننى أرى ان من يعيش على السلب والقتل ، فهو يطعم جيئا » . فالتقى على بوجاتشيف نظرة دهشة ، ولم يجب بشئ . ثم صمتنا ، وغرق كل منا فى تأملاته الخاصة .. وأخذ القترى يغنى أغنية حزينة . ثم غفا سافيليتش وهو يترنح فوق مقعده . وكانت المربة تنهب الطريق المغروشة بالفلج نهبا ..

ونجاة ، بصرت على ضفاف ( اليايىق ) الومرة ، مقربة اطلت علينا ببرج كنيستها وسياج أسوارها . وما هو إلا ربع ساعة ، حتى كنا فى ( بيلوجورسكيا ) ..



- ١٢ -

## يتيمة!

« مسكينة شجرة التفاح في بيتنا ..  
 « ما لها رأس ولا أغصان ؟  
 « مسكينة اميرتنا الغالية ..  
 « ما لها أب ، ولا لها أم ..  
 « ما لها أحد يزيناها بالحلى ..  
 « ما لها أحد يبارك زواجها ! »

من أغاني الأعراس

وقفت العرية أمام منزل الأمر . وكان الشعب يتبعها  
 راكضا ، إذ عرف مركبة بوجاتشيف من رنين أجراسها .  
 ولقينا « شفابرين » على عتبة الباب . كان يرندى لباسا  
 قوزاقيا ، وكان قد أرخى لحبته . وهب هذا الخائن إلى  
 مساعدة بوجاتشيف على النزول من العربة ، وراح يتزلف  
 إليه بأجبن المبارات ، مظهرا ولاءه معبرا عن فرحه .  
 واضطرب حين رآني ، ولكنّه سرعان ما استعاد رباطة  
 جأشه ، فمد إلى يده وهو يقول : « أصبحت إذن من  
 جماعتنا ! .. حقا لقد آن الأوان » . فادرت ظهري له . ولم  
 أقل شيئا .

وانقبض صدري حين رايتني في هذه الغرفة التي اعرفها  
 بحق المعرفة .. كانت شهادة المرحوم أمرا لوفع ما توأل معلنة

على الحائط ، تذكر على حزن وحسرة بالمهد الذي انقضى .  
 وجلس بوجاتشيف على الديوان - الذي كان ايفان كوزميتش  
 يغفر فوقه ، تهبه هذه ثمرات زوجه - فقدم له شفابرين  
 قدحا من الفودكا بنفسه ، فايتعله بوجاتشيف دفعة واحدة ،  
 وقال وهو يشير إلى بأصابعه : « قدم قدحا لصاحب  
 النبالة ! » .

فتقدم مني شفابرين ببطيخه . إلا أنني اشجيت بوجهي مره  
 أخرى ، فبدأ عليه الاضطراب . لقد أدرك ولا شك - بما يملك  
 من نفاذ البصرة - أن بوجاتشيف غير راض عنه . فظهر  
 عليه الوجع ، ورماني بتفراوات قفيض شكا وارتياحا . وساله  
 بوجاتشيف عن حالة الموضع ، وعما يشاع عن تقدم العدو ،  
 إلى آخر ما هنالك ، ثم بافته على حين غرة بهذا السؤال :  
 « قل لي يا عزيزي ، من هي تلك الفتاة التي تسجنها في  
 بيتك ؟ .. أحب أن أراها ! » .

فانقطع وجه شفابرين حتى أصبح كوجود الموتى اصفرارا ،  
 ثم قال بصوت مرتجف : « ليست سجينه يا سيدي ، وإنما  
 هي مريضة .. راقدة في غرفتها » . فاجاب الفاسب وهو  
 ينهض عن الديوان : « امض بي إليها ! .. » وإذا أصدر الزعيم  
 أمرا ، فلا مجال ثمة للمناقشة .. كان لابد لشفابرين من أن  
 يتخذ الأمر ، فصعد نحو غرفة ماريا ايفانوفنا ، وتبعتهما .  
 فإذا شفابرين يتوقف على السلم ، قائلا : « مولاي ! .. لك  
 أن تطلب إلي كل ما تشاء ، ولكن .. » .  
 إلى مخدع زوجتي ! » .

فما سمعت هذا الكلام حتى ارتجت من أخصى ثنبي إلى قمة رأسي ، فصحت بشغابين ، وأنا مستعد لأن أمزقه أربا : « إذن تزوجت ؟ ! » . نطاطني بوجاتشيف بقوله : « على مهلك .. هذا من شأني ! .. وانت يا شغابين ، ليس لك أن تعمل ولا أن تتبرم .. سواء أكانت الفناة امرأتك أم لم تكن ، فلي أن احضر إليها من أشياء من الناس . اتبعني يا صاحب النبالة ! » .

وتوقف شغابين مرة أخرى أمام الغرفة ليقول بمسوت متهدج : « مولاي ، انها مصابة بحمى شديدة ، وهي تهذى بلا انقطاع منذ ثلاثة أيام » . « فصاح به : « افتح هذا الباب ! » .

أخذ شغابين يبحث في جيوبه مدة طويلة ، ثم أعلن انه نسي المفتاح . فما كان من بوجاتشيف إلا أن ركل الباب بقدمه ، فاذا بالقفل ينكسر ، وإذا بالباب يفتح ، فدخلنا الغرفة . وكذت أقع مغطيا على .. رأيت ماريا ايفانوفنا - وقد اشدت نحولها وشحب وجهها وتشمعت شعرها - جالسة على الأرض ، في ثوب بسيط ممزق مما ترتديه الفلاحات ، وأمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من الخبز . فلما راثنى ادخل ، انتفضت ، وانطلقت من صدرها صيحة . ولا تسكني عما فعلته عتيدف ، فائني لا أتذكر من ذلك شيئا الآن .

التي بوجاتشيف على شغابين نظرة ساخرة ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة مرة : « إنه لمسشتني ممتاز ،

مستشفاك هذا ! » . ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا وخاطبها بقوله : « قولي لي ايها الحمامة ، لماذا يعاقبك زوجك ؟ . ما مأخذه عليك ! » .

— زوجي ؟ .. ليس هو بزوجي ، ولن اكون زوجته في حياتي ! .. لقد أثرت أن ابوت على أن أتزوجه ، وساموت إن لم يخلصني أحد منه !

فالتقى بوجاتشيف على شغابين نظرة حاتقة ، وقال : « ها ! لقد جرؤت إذن على خداعي ؟ .. هل تدري ايها النذل ما تستحقه من عقاب ؟ ! » . فما كان من شغابين إلا أن جثا على ركبييه . فرايت الاشعثراي يتغلب في نفسي على جميع عواطف الكره والغضب . وأخذت انظر في احتقار إلى هذا السيد النبيل ينهالك على قدمي قوزاقي هارب من السجن !

\*\*\*

وهذا روع بوجاتشيف فقال : « ساعفو عنك في هذه المرة ، ولكني ساذكر بك بهذه الخطيئة عند اول خطيئة أخرى تركبها ! » . ثم التفت إلى ماريا ايفانوفنا ، فقال لها في كثير من اللطف : « أخرجي من هنا ايها الجميلة ، فاني أرد إليك حزينك .. انا القيصر ! » .

فالتقت عليه ماريا ايفانوفنا نظرة سريعة ، وادركت انها امام قاتل أبويها ، فغطت وجهها وسقطت مغطيا عليها . فهرعت إليها تريد أن اسفها ، إلا أن « بالاشا » اقتحمت الغرفة — في هذه اللحظة — وأخذت تسحب نفسها - فترك بوجاتشيف الغرفة ، وتزلنا جميعا إلى اليسار .. وقال لي :

« ها قد اتقنا حبيبتك الجميلة يا صاحب النبالة . فما رأيك في ان نستدعي القس » وان نجبره على مباركة زواجك بقريبة زوجته . » ساكون أنا ابا العريس ، ويكون شفايرين شاهد الزواج . سنحتفل بالعرس : « ناكل ونشرب ثم الباب عليكما نلقى ! » .

هنا وقع ما توقعته ، فان شفايرين قد فقد صوابه حين سمع اقتراح بوجاتشيف . فقال في غضب شديد : « لقد اخطأت يا مولاي إذ كذبت عليك . إلا أن جرينيف يكتب عليك أيضا . » ليست هذه الفتاة قريبة زوجة القس . إنها ابنة ايفان ميرونوف ، الذي اعدم حين الاستيلاء على هذا الحصن ! » .

فرسني بوجاتشيف بنظرات ملتبة . وسألني مرتبكا : « ما هذا ؟ » . فاجبت رابط الجأش : « لقد صدق شفايرين » . فقال بوجاتشيف وقد تجهت أسارير وجهه : « لم تنبئي بهذا من قبل ! » .

« أكان في وسمي أن اعلن أمام رجالك ، أن ابنة ميرونوف على قيد الحياة ! . لو قد قلت ذلك لزوجها إربا ، ولما اسكن إنقاذها ! »

فقال بوجاتشيف ضاحكا : « هذا لعمري صحيح . ما كان لهؤلاء السكريين أن يدعوا الفتاة وشبانها . ولقد احسنت زوجة القس صنعا حين اخفت عنهم هذه الحقيقة ! » . وانجزت فرصة مرجه هذا ، فتابعته كلامي أقول : « اسمع ! . لا أعرف كيف ادعوك ، ولا أحب أن أعرف كيف ادعوك ،

ولكن يشهد الله انني مستعد لأن ادفع حياتي ثمنا لما قدمت لي من صنيع . على انني أرجوك ألا تكلفني شططا فطلب إلى أمرا لا يتفق مع شرفي ووجداني المسيحي . . اتم ما بداته ، ودعني أمض بهذه اليتيمة إلى حيث يشاء لنا الله أن نمضي . ولك علينا عهد الله . أينما كنت ومهما يقع لك من أحداث - أن ندعوك لك الله في كل يوم ، نبأله المغفرة عن خطايك ! » .

وبدا على اللص أن روحه المعاني قد تأثرت بهذا الكلام . فقال : « لك ما تشاء ! . أنا إن عاقبت كان عقابي صارما وإن عفوت كان عفوي كاملا . تلك عادتي . . خذ حبيبك الجميلة ، وامض بها إلى حيث تشاء ، واني لاسأل الله أن يبارككما وان يصحبكما من كل سوء ! » .

ثم التفت إلى شفايرين ، فأمره بأن يعطيني « رخصة مرور » في جميع المراكز والحصون التابعة لسلطته . . وكان شفايرين كالمصقوع من هول ما يرى ، ثم مضى الفاسد يفتش الحصن مضطجبا شفايرين ، وبقيت أنا في البيت متملا بلقنى أريد أن أعد للسفر عنه . .

وهرولت إلى الطابق الأعلى ، فوجدت الباب مغلقا ، فقرعته ، فاجابت بالاشأ : « من الطابق ؟ » . وإذا ذكرت اسمي ، سمعت صوت ماشا الساحر يجيب : « انتظر يا بترو انفرغثني ، فاني ارتدى ثيابي . . اذهب إلى آكولينيا بالمفيلوفنا ، وسألق بك على الفور ! . » . نصعدت بالامر ، ومضيت إلى منزل القس .

وهرع الأب جراسيم وزوجته إلى لقائي ، وكان سانفيليتش قد أبلغهما نيا قديمي . فقالت زوجة القس : « مرحباً بـترو اندريفيتش ، لقد شاء الله إذن أن نراك مرة أخرى . كما نذكرك في كل يوم . وماريا ايفانوفنا ! لقد ما تأملت أثناء غيابك ، هذه الحماية القالية ! .. ولكن قل لي يا بني . ماذا علمت حتى استطعت أن تتفاهم مع بوجاتشيف ؟ .. كيف لم يبتلك ؟ .. انه يشكر على كل حال ، هذا اللص ! .. » . فقاطعتها الأب جراسيم يقول : « كفى يا هذه ! .. ليس ضروريا أن تجهري بكل ما تعرفينه . إن الثروة الطويلة لا تؤدي إلى النجاة والسلامة . ادخل يا بني بترو اندريفيتش ، إننا لم نرك منذ مدة طويلة ! » .

وقدمت إلى زوجة القس ما تيسر من طعام وشراب : دون أن تكف من ثروتها لحظة واحدة . فروت لي كيف اكرههما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا : وكيف اخذت ماريا نيكي وتنتحب لأنها لم تشأ أن تفارقهما ، وكيف انها ظلت على صلة بـماريا عن طريق بالاشا ( وهي فتاة كانت تعرف كيف تنزع الوكيل نفسه ! ) . وافهمتي ان بالاشا هي التي نصحت ماريا بالكتابة إلى . ورويت لهما بدوري خلاصة ما لقبت من أحداث ، فما أن عرفنا ان بوجاتشيف على علم بالكذوبتهما حتى اضطرنا ، وأخذنا يرسمان إشارة الصليب . وقالت زوجة القس : « اللهم عونك .. اللهم أسالك أن تمر السحابة دون أن تنفجر العاصفة ! .. ولكن ، ما هذا الالكسي ايفانتش ؟ إنه حقاً لحقير ! » .

\*\*\*

في هذه اللحظة فتح الباب ، وظهرت ماريا ايفانوفنا بـباسمة . لقد تركت ما كانت ترتديه من ثياب الفلاحات ، وعادت في ثياب كالتى كانت ترتديها سابقا .. وهي ثياب بسيطة ، على ذوق . فتناولت يدها ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة .. صمتنا كلانا وقد طفق قلبنا معادة . وادرك القس وزوجه انها زائدان ، فتركنا وحيدين .. فنسينا كل شيء وظللنا نتحدث دون أن نستطيع التوقف . قصت على ماريا ايفانوفنا كل ما وقع لها : منذ الاستيلاء على الحصن . فوصفت لي الحالة الفظيعة التي كانت فيها ، وما عانتها من متاعب سببها لها هذا الحقير الكريه شفابرين ، وذكرنا الأيام الخوالي ، فأخذنا نيكى معا .. وطلعت أخيراً اشرح لها ما عزمت عليه من أمر : افهمتها ان من المستحيل ان تبقى في حصن يخضع لسلطان بوجاتشيف ويأمره شفابرين ، وأن من المستحيل - كذلك - أن أمضى بها إلى ( اورنيورج ) التي كانت تمناني ما تمناني من هذا الحصار الطويل ، ولم يبق لها من أهل في هذا العالم . فاقترحت عليها أن نمضي إلى منزل أهلي في الريف . فترددت في أول الأمر ، لخوفها من ألا يشمر أبي نحوها بشيء من المحبة أو العطف ، إلا أنني هدأت روعها وطمأننتها .. كنت اعلم ان أبي سيمتقد ان مما يشرفه أن يؤوى في بيته ابنة محارب قديم ، قضى نحبها في سبيل الوطن .. وقلت لها أخيراً : « عزيزتي ماريا ايفانوفنا - إلى عندك زوجتي منذ الآن .. إن ظروفنا عجيبة جعلت بيننا إلى

الابد ، ولن يقوى شيء في هذا العالم على التفريق بيننا بمد الآن ! » .

فاصغت إلى كلامي في بساطة ، دون أن تظهر شيئا من نواضع كاذب أو تعال معتد . . كانت تشعر أن مصيرها مرتبط بمصيري ، ولكنها كررت ما سبق أن قالته ، وهو أنها لن تصبح زوجتي قبل أن يوافق أبواي على هذا الزواج . لم اعارضها في ذلك . وتماقنا في حرارة وصدق وإخلاص وعلى هذا النحو تم بيننا الاتفاق على كل شيء .

وبعد ساعة ، جاعني أحد الموكلاء برخصة المرور ، فنبلة بتوقيع مجعك ، هو توقيع بوجاتشيف ، ودعساني إلى المثل بين بدى الفاصب . فلما مضيت إلى بوجاتشيف ، وجدته يتها للعودة . ولا استطيع أن اشرح شرحا دقيقا ما شعرت به وأنا أقارق هذا الرجل الفظيع ، الذي كان وحشا ضاريا مع جميع الناس . . الاى ! علام الكذب ! . الحق اننى شعرت نحوه في تلك اللحظة بحب قوى . . وكنت اتمنى - من اعماق قلبي - أن أحمله على ترك عصابة اللصوص التي يرأسها ، وأن أنقذ حياته قبل أن يسبق السيف العدل . إلا أن شغابرين والجهور كانوا يحيطون بنا ، فلم استطع أن افصح عن كل ما يختلج في قلبي .

وافترقنا على احسن ما يكون صديقان . ولحج بوجاتشيف « آكلينا باميلوفنا » بين الجموع المحتشدة ، فلوح لها بيده مهددا على سبيل الدعابة ، وغمز بعينه غمزة ذات دلالة . ثم صعد إلى المركبة ، وأمر الحوذى أن يعود به إلى (بردسك) .

وحين سارت الخيل ، أطل من العربة مرة أخرى وصاح بى قائلا : « وداعا يا صاحب النبالة ! . . قد نلتقى في المستقبل » . ولقد التقينا فعلا ، ولكن يا ليما من ظروف تلك التي التقينا فيها ! . . وغاب بوجاتشيف عن انظارنا ، فظللت مدة طويلة أتأمل السسهل اللاحب ، الذي كانت مركبته تجتازه سريعة رشيقة . وتفرق الحشد ، وغاب شغابرين . . وعدت إلى منزل القس . . كان كل شيء قد أعد للسفر . . وكنت لا أحب أن أتأخر أكثر مما تأخرت « نوضعنا اشياعنا جميعها في العربة القعبية : التي كان يملكها الامر . وسرعان ما كدن الحوذى المركبة . ومضت ماريا ايفانوفنا تزور قبر أبويها ، اللذين دفنا وراء الكنيسة . وأردت أن أصحبها ، ولكنها رجعت أن ادعها تمضى إلى القبر وحيدة .

وعادت بعد بضعة لحظات وهي تذرغ الدموع . ثم جاءت العربة ، وخرج الأب جراسيم وزوجته إلى الباب يشياعنا . واستقونا في المركبة نحن الثلاثة : أنا ، وماريا ايفانوفنا ، وسافيليتش ، الذي جلس إلى جانب الحوذى . وقالت زوجة القس الطيبة : « وداعا يا ماريا ايفانوفنا » يا حبايتي العزيزة ! . . وداعا يا بترو اندريفتش ، ياذا القلب النبيل ! . . أرجو لكما رحلة موفقة وحياة سعيدة » .

وسارت بنا المركبة . ولحمت شغابرين ينظر إلينا من خلال نافذة بيت الامر . . كانت ملامحه تعبر عن حنق قائم . ولم اثما ان اظهر انتصارى على عدو ذل ، فأجرت وجهى ، واجترنا الأبواب تاركين هذا الحزن إلى الابد .

- ١٣ -

## الاعتقال

— لا تلمني يا سيدي ، فواجبي يقضى بار

ارسلك فوراً إلى السجن .

— لك ما تشاء . اننى مستعد ، ولكن املئ

كبير فى ان تفضل تمنى إلى حججى .

«كفى جنين»

وهكذا وجدتني مع الفتاة الرائعة ، التي كان مصيرها  
بقلقي أشد القلق . في صباح اليوم نفسه . كنت لا أكاد  
أصدق ان هذه السعادة — التي تفرغني — واقع لا حلم .  
كان يتراءى لى أن كل ما وقع ليس إلا حلمًا ، لا غد له .  
وكانت ماريا ايفانوفنا تتأمل الطريق ساهرة ، كأنها  
لم تشب إلى نفسها بعد . كنا حامتين : إذ كان قلبانا أملا  
من أن نستطيع الحديث . وانقضت ساعتان دون أن نשמع  
بانقضائهما ، فإذا نحن نصل إلى حصن مجاور خاضع كذلك  
لسلطان بوجاتشيف ، فهبوا هنالك إلى إبدال خيل العربية  
بسرعة ، وأظهر القوزاقى الالى — الذي كان بوجاتشيف قد  
عينه آمرا لهذا الحصن — كثيرا من الحفاوة بنا . فأدركت  
انهم يعدوننى أثر بوجاتشيف ومن القوم إليه . بذلك  
بفضل ثمرات الحوذى الذي كان يقوم مركبتنا .



ومضت ماريا ايفانوفنا تزود قبر أبويها ، اللذين دفنا وراء الكنيسة ..

وتابعنا سسرنا .. واخذ الظلام يهبط . واخذنا نقرب من مدينة صغيرة زعم الأمر الإلهي أن فيها قطعة كبيرة من الجنود تناهب للاتحاق بجيش بوجاتشيف . فلما وصلنا إلى هذه المدينة الصغيرة ، استوقفنا عدد من الخفراء . وسألوا من نحن ، فأجاب الحوذي : « صديق صاحب الجلالة » مع السيدة زوجته . « ماذا يجاعة من الفرسان تحيط بنا فجأة ، وتأخذ تكيل لنا ألوانا من الشتائم .

وصاح بى رقيب المساكن : « أنزل يا صديق الشيطان ! .. أنزل إلى حمام ساخن ، أنت والسيدة زوجتك ! » .. فنزلت من المركبة ، وأمرت أن يمشوا بى إلى أمر الموقع . فلما رأى الجنود أننى ضابط ، كفوا عن شتائمهم .

وتقدمنى رقيب المساكن يقودنى إلى مقر المقدم ، فاقترب منى سافيلينش يمدح بقوله : « شيء عظيم ! .. صديق صاحب الجلالة ! .. هربنا من الدب ، فوقفنا فى الجب . رباه ! نرى ما النهاية التى سنؤول إليها » . وتبعنا المركبة .

وما هى إلا خمس دقائق ، حتى وصلنا إلى منزل تخرج منه أنوار ساطعة . فتركنى الرقيب فى حراسة رجاله ، ودخل يؤذن بنا ، ثم ما لبث أن عاد يعلمنى أن صاحب النبالة الرفيعة لا يتسع وقته للقاءى الآن ، وأنه أمر بوضعى فى السجن ويأدخل السيدة إليه . فصرخت فى غضب شديد : « نعم ؟ .. أهو مجنون ؟ » . فأجاب : « لا أدرى يا صاحب النبالة إلا أن صاحب النبالة الرفيعة أمر بأن تضع نبالتكم فى

السجن ، وأن تدخل إليه السيدة زوجة نبالتكم ، يا صاحب النبالة ! » .

فاندفعت نحو الباب . ولم يدر فى خلد الجنود أن يستوقفونى . ودخلت قدما إلى غرفة رأيت فيها ستة من الضباط يقامرون . كان القدم هو الذى يوزع الورق . وما كان أشد دهشتى - حين نظرت إليه من كتب - فعرفت نيه ايفان ايغاثوفيتش زورين ، الذى علمنى لعب « البليارد » ، وغلبنى فى فندق « سميرسك » :

نهفت أقول : « أهذا ممكن ؟ .. ايفان ايغاثوفيتش ! .. هذا انت ! » .

— ها ، بترو اندريفيتش ! .. اية ربح سافتك إلنا ؟ ..  
من اين انت آت ؟ أهلا وسهلا ! .. تعال شاركنا اللعب !

— شكرا ! .. افضل أن تاهر لى بمنزل أبيت فيه .

— ما لك وللنزل ! .. ستهيت عندى !

— لا أستطيع .. لست وحدى !

— تعال انت ورفيقتك .

— لست فى صحبة رفيق . انها .. سيدة .

— سيدة ؟ أين عثرت عليها يا عزيزى ؟

قال زورين ذلك ، ثم أرسل صفرة مضحكة ، قهقه لها الجميع ، فاضطربت أشد الاضطراب . وتابع زورين كلامه يقول : « حسنا ، سنهوى لك مغلا تبيت فيه . ولكن

هذه خسارة !.. كان يمكن أن نسير الليلة معا . كما كنا نعمل في السابق » . ثم التفت إلى الجندي يقول : « ماذا تنتظر ؟.. لماذا لم تدخل صديقة بوجاتشيف ؟.. عمل مانعت في الدخول ؟.. قل لها انه لا خوف عليها ، فأنى إنسان نبيل ، لا اكراه احدا على ما لا يحب .. ليس لها أن تتدلل ! » .

فتدخلت أقول : « ما هذا الكلام ؟.. ليست هذه السيدة صديقة بوجاتشيف ، وإنما هى ابنة الضابط الرئيس ميرونوف ، حررتها من الأسر ، وأنا ذاهب بها الآن إلى أرضنا ، لأتركها في كف أهلى ! » .

— ما هذا الكلام ؟.. إذن فالشخص الذى أبلغونى نبأ اعتقاله — منذ قليل — هو أنت ؟.. ما معنى هذا كله ؟ أنتى لا أنهم ..

— سأروى لك كل شيء فيما بعد ، وإنما أرجوك الآن أن تعطى هذه الفتاة المسكينة التى روعها قراصاتك .

فنهض زورين من مكانه على الفور ، وخرج بنفسه إلى الشارع ، يعتذر لماريا ايفانوفنا عما وقع من التباس لا إرادة له فيه . وأمر حريف المساكن بأن يمد لساكنها أجمل بيت في المدينة . أما أنا ، فمكثت عنده .

\*\*\*

وبعد أن تناولنا طعام العشاء بقبلى وحدنا ، تقصصت له ما وقع لى ، فكان يصفى إلى حديثى فى انتباه شديد ، حتى إذا فرغت من الكلام هز رأسه وقال : « هذا كله معقول

يا عزيزى ، إلا أن ثمة شيئا لا أفهمه : « ما خلجتك إلى الزواج ؟ أننى إنسان شريف ، أننى ضابط ، وليس بى من حاجة إلى خداعك . صدقنى إذا قلت لك أن الزواج سخف كبير !.. ليس من شأنك أن تتورط بامرأة ، وأن تعنى بأطفال صغار !.. دعك من هذا ، واسمع ما أقوله لك : « تخلص من ابنة الضابط الرئيس !.. لقد ظهرت طريق ( سميرسك ) فأصبح خاليا من أى خطر . أرسل الفتاة فى الغداة وحيدة إلى أبويك ، وامك أنت هنا فى فرقتى . دعك من العودة إلى اورنبورج . وإلا فقد تقع مرة أخرى فى قبضة العصاة ، فبما تستطيع التخلص منهم بمثل تلك السهولة .. ثم ينقض جنون الغرام ويمس كل شيء على ما يرام ؟ » .

وبرغم أننى لم أوافق « زورين » كل الموافقة ، فقد شعرت أن الواجب يقتضى وجودى فى جيوش الإمبراطورة ، فقدرت أن أعمل بنصيحته : أرسل ماريا ايفانوفنا إلى أهلى وأبقى فى فرقة زورين .

وجاء سافيليتش يخلع ملابسى ، ففكرت له أن عليه أن يتنبا للسفر غدا مع ماريا ايفانوفنا ، فآخذ — فى أول الامر — يمتنع : قائلا : « ما هذا الكلام يا سيدى ؟ كيف تريد منى أن أتركك !.. ومن ذا الذى يعنى بك إذا أنا تركتك ؟ وما عسى أن يقول أبواك ، إذا أنا تركتك ؟ » .

ولما كنت أعرف عناد صاحبى . فقد قررت أن أخذه بالرفق واللين ، وأن أصارحه بكل شيء . فقلت : « أرجوك يا صديقى العزيز أرخيب سافيليتش .. لا ترفض لى هذا



الطلب . احسن إلى بتحقيق هذا الطلب . لست في حاجة إلى من يخدمني ، ولسوف يقلقني جدا أن تسافر ماريا ايفانوفنا وحدها . وإن انت خدمت ماريا فإنما تخدمني أنا ، لأنني عازم عزمًا أكيدا على الزواج بها متى سمحت الظروف بذلك ! » .. وهنا ضم سافيليتش يديه - أحدهما إلى الأخرى - وظهرت في وجهه علامة دهشة يعجز الكلام عن وصفها واخذ يقول : « تتزوج بها ! الولد يريد أن يتزوج ! .. وما عسى أن يقول أبوك في هذا الأمر ! وما عسى أن يكون رأي امك ! » .

- لعلهما يوافقان حين يعرفان ماريا ايفانوفنا .. ثم اننى اعتمد عليك . ان ابواى يثقان بك ! ولا شك أنك ستسجهمما على هذه الموافقة ، اليس كذلك يا سافيليتش !

فاجاب : « عزيزى بئرو اندريفتش .. صحيح أنك أصغر سنا من أن تتزوج ، ولكن ماريا ايفانوفنا أنسة ممتازة ، ومن الخطأ أن تفوت هذه الفرصة ! نعم ، نعم .. سأصحبها .. سأصحب هذا الملك الهابط من السماء . وساقول لأبوك - في إخلاص الخادم الأمين - أن خطيبة كهذه يجب ألا تطالب بمهر ! » .

فشكرت لسافيليتش شهامته ، ووقدت في غرفة زورين .. وكنت في حالة من الانفعال والحماسة ، فأخذت اثرتي . وظهر على زورين - في أول الأمر - أنه مستعد للحديث ، ولكن سرعان ما قل كلامه وتشوش شيئا بعد شيء . حتى إذا طرح عليه سؤالا أخيرا ، كان جوابه ان اخذ بشعر ،

واخذ انفه يصغر . فانقطعت عن الكلام ثم ما لبثت أن اقتديت به .

وفي الصباح من الفداة ، ذهبت إلى مائيا أظلمها على ما عزمت عليه من امر ، فما لبثت أن حذته ، لأنها رأت فيه عين الحكمة والصواب . وكان على فرقة زورين أن تترك المدينة في ذلك اليوم نفسه ، فالوقت ضيق يجب ألا يضيع منه شيء . فما لبثت أن ودعت ماريا ايفانوفنا ، وأنا أعهد بها إلى سافيليتش وأحمله رسالة إلى أبوى . وأخذت ماريا تبكى ، وقالت في لطف « في رعاية الله يا بئرو اندريفتش . لا يعلم إلا الله هل نلتقى مرة أخرى أو لا نلتقى ، ولكننى لن أنساك ما حييت .. ستبقى وحدك في قلبى إلى أن اللفظ آخر أنفاسى ! » .

ولم أستطع ان اجيبها بشيء ، لأننى لم أشاء ان أظهر للناس العاطفة التى تمتلج في قلبى . حتى إذا سافرت ماريا ايفانوفنا ، وعدت إلى بيت زورين حزينا صامتا . وأراد ان يواسينى ، وأحبت أنا ان أسرى عن نفسى ، وإن أبدد كآبتى ، ففقدنا سحابة النهار في صخب وعريدة . حتى إذا أقبل المساء ، تركنا المدينة لنمضى إلى العمل .

\*\*\*

كان ذلك في أواخر شهر شباط ( فبراير ) . وكان فصل الشتاء - الذى يعرقل الأعمال الحربية - مشرقا على نهايته ، وقلدنا يتهاون للشروع في عمل مشهور باسم . وكان بوجاشيف ما يزال يحاصر ( أوديسا ) ، فاستطاعت طاعاتنا

ان تتلافى متاهة لتطويق عربن اللصوص ، واخذت القرى  
التمردة تستسلم لدى رؤية جيوشنا ، وراحت عصابات  
العصاة تتيشر في كل مكان كلما اقتربنا منها ، وبات كل شيء  
يشر بنهاية سريعة موفقة .

وما لبث الجنرال الأمير جالشين ان احرز في (تاتيشيفا)  
انتصارا حاسما على بوجاتشيف ، فشتت شمل عصاباته ،  
وحرر اورنبورج ، ولاح ان الفتنة قد شارفت على الانتهاء .  
وارسل زورين بلاحق فلول الباشكير العصاة الذين كانوا  
يهربون قبل ان نصل إليهم . ثم ادركنا الريح في قرية تربية  
.. وكانت الانهار قد بدات تفيض ، فانقطعت الطرق  
بالشغباء في خاتمة هذه الحرب المملة . التي اشهرناها على  
لصوص وعلى همج .. إلا ان بوجاتشيف كان ما يزال طليقا .  
ثم لم يلبث ان ظهر في مناجم سيبيريا ، واخذ يجمع عصابات  
جديدة ويستأنف جرائمه . وذاعت انباء انتصاراته مرة  
اخرى . وسرعان ما طوق اسماعنا نيا استيلائه على (قازان)  
واتجاهه نحو موسكو . فالتقى ذلك قادة الجيش ابدا قلقا  
بعد ان هدهدهم هذا الحلم العذب . وهو القضاء على اللص  
الظهير .

وصدر الأمر إلى زورين باجتياز نهر الفولجا ، والاتجاه  
بسرعة نحو (سمبرسك) ، حيث احرزت الفتنة انتصارات  
سريعة . فلما قصورت اثنى سائكن من المرور بأرضنا ،  
فالتحق أبوي ، وأرى ماريا ايفانوفنا ، بلغت من شدة الفزع

اننى اخذت اقفز كطفل ، واقبل زورين ، واردد بلا انقطاع ،  
« إلى سمبرسك ، إلى سمبرسك ! » . فكان زورين يزفر  
ثم يقول وهو يهز كتفيه : « لا ، لا .. ان نهايتك لسيئة إن  
انت تزوجت .. سيكون في ذلك ضياعك ! » .



واقترينا من ضفاف الفولجا ، واحتلت القرية قرية  
(سى .. ) ، وقضت فيها ليلتها . وكان علينا أن نجتاز  
النهر بكوة في القداة . فقال لى عمدة القرية إن جميع القرى  
الواقعة على الضفة الأخرى قد التحقت بالثورة ، وأن  
عصابات بوجاتشيف تطوف المنطقة كلها . فقلقنى هذا النبا  
كبيرا ، وشمرت باضطراب كبير ، ولم اجد إلى الراحة  
سيلا .. كانت ارض أبى واقعة على بعد ثلاثين فرسخا وراء  
الضفة الثانية . وسالت : هل من وسيلة إلى إيجاد قارب  
اجتاز به النهر .. ولكن جميع الفلاحين كانوا يمارسون  
الصيد ، فقل لى : « حذار ! .. انه لمن الخطر ان تسافر  
ومحلك . انتظر حتى الصباح ، فمستجاز النهر أول من  
يجتازه ، قمضى إلى زيارة أهلك يصحبنا خمسون فارسا ،  
تغاديا لكل خطر ! » .

وامسرت على رأي ، فأعد القارب ، واستويت فيه مع  
اثنين من المجدفين . وانفصلنا عن الشاطئ ، واخذت  
المجاديف تضرب الماء . كانت السماء صافية والقمر ساطعا ،  
والجو ناعما ، و ( الفولجا ) يجري في هدوء هلال . والقارب  
يتزلق على صفحة المياه المظلمة في ترويح جميل . وانقضى

على ذلك نصف ساعة . كنت قد تركت الغتان لخيالي يبعث ما شاء له العبث ، فرحت أفكر في هدوء الطبيعة ، وأحوال السياسة ، والحب ، الخ .. حتى وصلنا إلى منتصف النهر ، وفجأة تبادل الرجلان بضع كلمات بصوت منخفض . فثبت إلى نفسي ، وسألتهما : « ماذا تقولان » . فأجابا وهما ينظران إلى جهة من النهر : « لا ندرى ما هذا ! الله يعلم ما هو !... » .

فنظرت ، فإذا أنا أبصر في ضوء القمر الشاحب شيئاً يتحرك على صفحة الماء في اتجاه مجرى النهر . كان هذا الشيء المجهول يقترب منا ، فأمرت الرجلين أن يقفا منتظرين .. وجاءت سحابة فغطت القمر ، وأصبح الشبح المتحرك مظلماً . وزاد اقترابه منا ، إلا أنني لم أستطع تمييزه بعد . فقال الرجلان : « ولكن ما عسى أن يكون هذا ؟ .. أنه ليس شراعاً ولا صارباً » . وانقشعت السحابة فجأة عن وجه القمر ، فإذا نحن نرى منظراً رهيباً .. أنها مشنقة نصبت فوق رمث (١) ، يأتي نحونا . وعلى المشنقة ثلاثة مشنوقين .. وسيطر على نوع من الفضول الرضى ، وأردت أن أرى وجوه هذه الضحايا ، فأمرت الرجلين أن يحاذيا الرمث ، فأنشبا فيه .. واصطدم قاربي بالمشنقة العائمة ، فقفزت إلى الرمث ، فإذا أنا أمام ثلاث جثث تعيسة رهيبة . وكان القمر يلقي على وجوهها المشوهة نوراً واضحاً . لما الأول فكان

(١) الرمث : خشب يحمى منه إلى يمين ويسار في الماء .

شوفاشيا (١) عجوزاً ، وأما الثاني فلاحاً روسياً قوياً بديناً ، بدا في العشرين من عمره ، وأما الثالث فقد شذت حين نظرت إليه ، ولم استطع إلا أن أرتي لحاله .. كان « فانكا » .. فانكا المسكين ، الذي دفعته حماقته إلى الالتحاق بالناشرين . ورأيت لوحة سوداء فوق رؤوسهم ، وكتبت عليها بأحرف بيض هذه العبارة : « لصوص وعصاة » .. وكان الرجلان ينتظراني وهما يسكان الرمث بالكلاية . فعدت إلى القارب ، وتابع الرمث سيره الجنازى . وظللتنا مدة طويلة نميز المشنقة في الظلام ، ثم غابت عن أعيننا ، ووصل قاربنا إلى ناحية عالية وعرة من الضفة الثانية .

\*\*\*

تقدت الرجلين اجرا كبيراً . وقادني أحدهما إلى عمدة القرية . الذي كان يتيم في مكان قريب من النهر . فلما علم العمدة أنني أطلب خيلاً ، نظر إلى في أول الأمر نظرة متكبرة ، إلا أن دليلي همس في أذنه بضع كلمات ، فإذا خشونته تنقلب حالاً إلى حفاوة بالغة . وما هي إلا لحظات حتى كانت العربدة معدة ، فصعدت إليها وأمرت الحوذي بالمضي إلى قرينى .. وسارت العربدة بسرعة ، مارة بقرى نائمة . وكنت لا أخشى إلا شيئاً واحداً ، هو أن أوقف في الطريق . ولكن ، لأن كان ما رأيته في التولجا دليلاً على وجود ثائرين ، فانه

(١) الشوفاش : قوم من أصل غزلي يقيمون في أقصى الشمال الغربي

سبيرك ، وفاران .. الخ .

كان - كذلك - دليلا على قوة السلطات . وكنت - على كل حال - احمل رخصة السفر التي يذيلها توقيع بوجاتسيف . واحمل كذلك امر السير الذي يمهده توقيع العقيد زورين .  
إلا اننى لم ألق احدا .

ولما طلعت تباشير الصباح : رايت نهرا ، ورايت النحل الذى تقوم وراءه قريشنا . وراح الحوذى يضرب الخيل بالسوط . وما هى إلا ربع ساعة حتى كنت فى قرية (س.س.١٠) . ولكن القصر الذى يقيم فيه سيد القرية « كان يقع فى اخرها ، واخذت الخيل تمدو بسرعة كبيرة . وفجأة ، اخذ الحوذى يستوففها - بشد اللجم شدا قويا - فى وسط الشارع . فسألته فى لهفة : « ماذا هنالك ؟ » . فاجاب وهو لا يوقف الخيل الجامحة إلا فى كثير من العناء : « ان الطريق مسدودة » .

نظرت ، فاذا انا ارى حاجزا رفع فى منتصف الطريق : وقام إلى جانبه حارس مسلح بدبوس . واقترب الفلاح ، فرقع قمعته ، وطلب إلى إبراز جواز السفر . فسأته قائلا : « ما هذا الحاجز ؟ ومن ذا تراقب ؟ » . فاجاب وهو يحك ظهره : « لقد التحقنا بالثورة يا عزيزى » . فسألته وقد انقبض صدرى : « واين سادتك ؟ » .

سألت

- سادتنا فى عنبر القمح .

- فى عنبر القمح .

- نعم يا عزيزى !.. ولقد قيدهم المسجل بالحديد ، وهو يزعم ان يذهب بهم إلى القيصر !

- رباه ! افتح هذا الحاجز أيها الأبله ، هيا افتح !.. ماذا تنتظر ؟

وتردد الحارس . فقفزت من العربية ، وضربت على اذنه ، وأزاحت الحاجز بنفسى ، وهو يتطلع إلى بنظرة مرتبكة بلهاء . ثم صعدت العربية ، وأمرت الحوذى بأن يمضى بى إلى سيد المنزل .- كان عنبر القمح يقوم فى وسط العرصة . ورايت اثنين من « الموجيك » يحرسان مدخل البيت : وفد تسليح كل منهما بدبوس . وقفت العربية امام الباب ، فقعرت منها إلى الارض : واتجهت إليهما راسا . فقلت آمرا : « افتحا الباب ! » .

\*\*\*

ربما كان منظرى رهيبا مخيفا . والمهم - على كل حال - انهما قرا مسرعين ، ورسم كل منهما دبوسه على الأرض . وحاولت أن احطم القفل ، وأن اقتحم الباب ، إلا أن الباب كان مقيدا بالسلاسل ، لا سبيل إلى فمه . وفى هذه اللحظة ، خرج من جناح الخدم شاب من الموجيك ، وسألنى بلهجة صلفية : « كيف جرؤت على فعل ما فعلت ؟ » . فصرخت اقول « اين المسجل اندروشكا ؟.. اثنى به ! » .

- إنه آتا ، واسمى آندريه آلتاسيفتش ، لا اندروشكا

.. ماذا تريد ؟

ولكننى بدلا من أن اجيب على سؤاله : « منكم من بافته . قال ذلك فى زهو وكبرياء ، وندس وخسب يدهم على خصره .

وجروته حتى وصلت إلى باب العنبر ، فأمرته بأن يفتحها ، وأراد أن يحتج ، وأن يميظ ، ولكنني سرعان ما لطمته بضغ لطمات هدأت روعه . فأخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح العنبر . وهرعت إلى الداخل . وهناك ، في ركن مظلم لا يدخل إليه النور إلا من ثقب صغير في السقف ، رأيت أبوي .. كانت أيديهما مقيدة ، وكانت أرجلهما مقيدة .. ارتعيت عليهما دون أن أقول كلمة واحدة . واخذا يتفرسان في دهشين .. إن هذه السنين الثلاث - التي قضيتها في الخدمة العسكرية - قد بدلت ملامحي ، حتى أتهما لم يعرفاني . وفجأة ، سمعت صوتا ساعرا أصرقه بقول : « أهذا انت يا بتر واندريفتش ؟ » .

فالتفت ، فرأيت ماريا ايفانوفنا في ركن آخر ، مقيدة كذلك .. وصعقت .. وأخذ أبي ينظر إلى صامتا ، وهو لا يصدق عينيه . كان الفرح يضيء وجهه . ثم قال وهو يشدني إلى صدره : « لقد عدت يا بني ! .. الحمد لله ، الحمد لله ! » .. وأطلقت أمي صرخة من صدرها ، ثم اجهشت في بكاء غزير . وقالت : « بني ، حبيبي ! .. لقد شاء الله أن يأتي بك إلى هنا ، ولكن كيف حالك ؟ » .

وسارعت فحللت وثاقهم بسيفي . لأخرجهم من هذا المكان . إلا أنني حين اقتربت من الباب ، وجدته مغلقا من جديد . نصحت حائقا أنادى اندروشسكا : « اندروشكا .. افتح الباب ! » . فلجأ من الخارج : « لا ، لا .. ما عليك إلا أن تبقى هنا . سنعملك كيف تخرج على القانون ونهين موظفي القيصر ! » .

وأخذت افحص العنبر ، على أجد وسيلة تتيح لنا الهرب . فقال أبي : « هذا عبث ! .. لست من المالكين الذين يدخلون إلى عنابرهم ثم يخرجون منها بعمر خفي ! » .

لقد سرت أمي في أول الأمر لرؤيتي ، ثم ما لبثت أن انحدرت إلى غم شديد ، إذ رائتني التي نفس المصير الذي يهدد الأسرة كلها . أما أنا ، فقد شعرت بالهدوء والطمانينة منذ وجدتنني إلى جانب أبوي وإلى جانب ماريا ايفانوفنا . وكنت ما أزال املك سيفي واملك مسدسين ، وهذا ما يتيح لي أن احارب إذا اقتضى الأمر . وكان علي زورين أن يصل في المساء ، ولا يد أن يحرقنا متى وصل . فانبأت أهلي بذلك ، واستطلعت أن أهدئ من روع أمي ومن روع ماريا ايفانوفنا ، ففعلنا قرح رؤيتي مرة أخرى .

\*\*\*

وقضينا ساعات طويلة في مدايات وأحاديث لا تنقطع . قال أبي : « هيه ، يا بتر و .. لقد فعلت الأفاعيل ، وما أشد ما ضقت بك ، ولكننا لا نريد أن نتحدث الآن في أمور الماضي .. أرجو أن تكون قد شفيت الآن من حماقتك . أنني أعلم أنك قد فمت بواجبك العسكري على النحو الذي يليق بضابط شجاع ، فشكرا لك .. إن هذا لما يعزى رجلا عجوزا مثلي . وإذا تمت نجائنا على يدك ، كان سروري بها مضاعفا ! » .. فقبلت يد أبي وأنا أبكي . وألقيت نظرة عجيبي على ماريا ايفانوفنا « فكانت في شدة الفرح لعمري ، بحيث كانت تبدو هادئة كل الهدوء » .

واخذ ابى المسدين فسلحهما ، واصطف إلى جانبى ..  
ورقع القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس المسجل في المدخل .  
فما لبثت أن هويت عليه بضربة من سيفى فخر على الارض  
وسد بوسطه مدخل العنبر . وفى هذه اللحظة ، اطلق ابى  
نار مدسه في الباب . فاذا الحشد - الذى كان يحاصرنا  
- ينسحب إلى الوراء . فجرت الجريح إلى الداخل ،  
واغلقت الباب .. كان الجمع يمج بأناس مسلحين ، عرفت  
بينهم شفايرين . فقلت لأمى ومارى : « لا تخافا شيئا ! ..  
الامل كبير » . ثم التفت إلى ابى قائلا : « وانت يا ايت ،  
لا تطلق نار مدسك . لنوفر ما بقى لنا من ذخيرة ! » .

وكانت أمى تصلى وتبتهل إلى الله صامتة . وقد وقفت  
ماريا ايفانوفنا إلى جانبها تنتظر قرار القدر في هدوء ملائكى .  
وكانت تدوى في الخارج اصوات التهديد والسياب والشم .  
ظلمت في مكانى مستعدا لان أمزق اربا أول جسور يمكن أن  
يظهر على الباب . وفجأة ، سكك المجرمون . وسمعت  
صوت شفايرين ينادينى باسمى . فقلت : « انا هنا ! ..  
ماذا تريد منى ؟ » .

- سلم نفسك يا جرينيف إن المقاومة عبث لا طائل تحته ،  
جنب أبوك المجرزين شر الموت ! . لن يتفدك العناد ،  
فسوف انتصر عليك !

- ما عليك إذن إلا أن تحاول أربا الخائن .

- كلا ، لن أعرض نفسى لشيء في غير فائدة ، ولن أعرض  
حياة رجالى للخطر . بكفينى أن ..

وفى نحو الظهيرة : سمعنا صراخا وضجة غير مألوفة .  
فسأل ابى : « ما هذا ؟ .. أياكون صاحبك العقيد قد وصل ؟ »  
.. فقلت : « هذا غير ممكن .. انه لا يستطيع الوصول قبل  
المساء » .

زادت الضجة ، ودق ناقوس الخطر ، وسمعنا وقع حوافر  
الخيل تجرى في باحة المنزل عدوا . وفى هذه اللحظة . رأينا  
رأس سافيليتش الأشيب يطل من ثقب في جدار العنبر .  
وسمعه يقول في توجع : « أندريه بتروفتش ، وبني بترو  
اندريفتش ، وماريا ايفانوفنا ! .. لقد وصل اللصوص إلى  
القرية ! .. وهل تعرف يا بترو اندريفتش من على رأسهم ؟  
.. إنه شفايرين ، اليكسى ايفانتش ، قائله الله ! » .

حين سمعت ماريا ايفانوفنا هذا الاسم الكريه . سمعت  
يديها إحداهما إلى الأخرى ، وتسمرت في مكانها وقد لاح  
في وجهها ياس رهيب . فقلت : « اسمع يا سافيليتش ! ..  
أرسل احدا - على حصان - إلى ضفة النهر : يستقبل  
فرقة الفرسان ، وينبئ العقيد بما نحن فيه من خطر » .

- من عساي أرسل يا سيدى ؟ .. إن الأولاد جميعا قد  
التحقوا بالنورة ، والخيول صودرت كلها . آه . يا إلهى ! ..  
ها قد وصلوا إلى الباحة .. أنهم يقتربون من العنبر !

\*\*\*

وفى هذه اللحظة ، سمعنا اصواتا وراء الباب . فأشرت  
إلى أمى وإلى ماريا ايفانوفنا أن يعتصما في ركن من الاركان ،  
ثم استندت إلى الحائط بقرب الباب ، وسللت سيفى .

وسترى - عندئذ - ما أنت صانع ، يا « دون كيشوت »  
 يولوجورسكايا !.. سامضى الآن اتناول طعام الفداء ،  
 وما عليك بانتظار ذلك إلا أن تفكر فى الأمر على مهلك . إلى  
 اللقاء !.. وانت يا ماريا ايقانوفنا ، لن اعتذر لك ، فلعلك  
 لن تملى التعود فى الظلام ، إلى جانب فارسك المغوار !

وابتعد شفايرين بعد أن امر بحراسة العنبر . ولم تقل  
 شيئا .. كان كل منا غارقا فى أفكاره ، دون أن يجرؤ على  
 الإفضاء بها للآخرين . كنت أفكر فيما يستطيع إنسان  
 كشفايرين أن يفعله إذا ثار نائره !.. وانى لأعترف بأن القلق  
 الذى ساورنى على أبوى ، كان ضيلا إذا فيس بالقلق الذى  
 أحدثه فى نفسى مصير ماريا ايقانوفنا .. كنت أعلم أن  
 الفلاحين والخدم يحبون أمى إلى درجة العبادة ، وأن أبى  
 يتمتع - كذلك - بمحبة الناس برغم قسوته ، لأنه كان  
 عادلا ، وكان يعرف حاجات رعاياه الحقيقية . ولم تكن  
 ثورتهم إذن بالخطيرة ، وإنما هى زلة لا تعبر عن استياء ذى  
 بال . فالأمل - من هذه الناحية - لم يزل زوالا تاما .  
 ولكن .. ولكن ما عسى أن يكون مصير ماريا ايقانوفنا بين  
 يدى رجل فاجر لا ضمير له ؟.. لم أكن أجرو على التوقف  
 عند هذه الفكرة القظيمة ، وكنت انهى ( اللهم عفوك  
 ومغفرتك ! ) لأن اقتلها قبل أن أراها واقعة فى قبضة  
 عدوها !

\*\*\*

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة .. كانت أصوات غناء  
 السكارى تصل إلى مسامعنا من القاعات التى كانت حواسنا

( ١٢٣ - ماريا ايقانوفنا )



مجردت المرح إلى الداخل ، واخلفت الباب

بتمزقون جسدا ، فينتقمون لأنفسهم منا بأن يكبلوا لنا السباب ، ويهددونا بالمديب والقتل . وأخيرا اضطربت عرصة المنزل مرة أخرى اضطرابا كبيرا . وسمعنا صوت شفايرين يقول : « هيه ! هل فكرتم ؟.. هل عزمتم على الاستسلام طائعين ؟ » .

لم يجبه أحد ، فانتظر مدة من الوقت . ثم امر بإحضار القس . وما هي إلا لحظات ، حتى رأينا النار تشتعل في سجننا المظلم . واخلد الدخان يتسرب من تحت الباب . عندئذ اختربت ماريا ايفانوفنا منى وتناوت يدي في رقة ولطف ، وقالت :

— اسمع يا بترو اندريفيتش !.. لا تهلك أبوك . ولا تهلك نفسك بسببي . دعنى أخرج . فان شفايرين بصمى إلى كلامي !

فصرخت في غضب شديد : مستحيل .. اتدري ما الذى ينتظر ؟ » . فاجابت في هدوء : « لن أعيش بعد أن يثلم شرفي ، ولكن .. ربما استطعت أن أنقذ الشخص النبيل الذى حررتني ، والأسرة الكريمة التى أحسنت وفادة بتيمة بائسة .. وداعا يا أندريه بتروفيتش ، وداعا يا اfdوتيا فاسيلينا !.. جزاكم الله خيرا عما أسلفتما من إحسان إلى .. باركائى وانمعا على بالرضى !.. وداعا أنت يا بترو اندريفيتش .. تأكد اننى .. انتى .. » .

هنا انفجرت في نحيب قوى ، وهى تخفى وجهها بيديها .. كنت كمن طار صوابه . وانفجرت امى في بكاء غزير .

فقال ابى : « كفى حماقة يا ماريا ايفانوفنا ، من الذى يدعك تذهبين وحدك إلى هؤلاء اللصوص ؟.. ابقى هنا وكفى ثرثرة . إذا كان لابد من الموت ، فلنمت .. اسمعوا ماذا يقولون ايضا فى الخارج ؟ » .

وسمعنا شفايرين يصيح : « الا تستسلمون ؟.. الا ترون انه لن تمضى خمس دقائق حتى تقلى جثثكم قليا ! » . فاجابه ابى بصوت قوى حازم : « لن نستسلم ابها الحقير ! » .. وكان وجهه المفضن يشرق بقوة هائلة وعزيمة جارية .. وكانت عيناه تتدحان شررا تحت حاجبيه الكثيفين . والتفت نحوى وقال « آن الاوان ! » .

ثم فتح الباب ، فاندفعت النيران إلى الداخل ، وارتفعت السنة اللهب حتى بلغت جسور السقف المسدودة شقوقها بأغصان يابسة . واطلق ابى نار مسدسه ، ثم جاوز العتبة المشتعلة بخطوة ، وهو يصيح نسا قائلا : « اتبعونى ! » . فامسكت بيدي امى وماريا ، وخرجت بهما بسرعة إلى الهواء الطلق . فرايت شفايرين مجنحلا امام العتبة ، قد صرخته يد ابى الضعيفة . وقد ذعر جمهور اللصوص من خروجنا المفاجيء هذا فتفرقوا .. إلا أنهم سرعان ما استردوا رباطة جاشهم ، وأخذوا يطوقونا . واستطعت أن اضرب عددا من الضربات القوية . إلا أن آجرة - رمتها يد حاذقة - قد اصابتنى فى صدرى ، فسقطت منشيا على . وأحباط بى اللصوص ، فجردونى من سلاحى . فلما انفتحت من إنمائي - رايت شفايرين راقدًا على العشب ولما - وقد جلست أمام



أسرقتنا ، يستدنى بعضهم من الابطين . واحتشد حولنا جمهور من الفلاحين والقوزاق والباشكين .»

\*\*\*

كان شفايرين شديد الشحوب ، وقد وضع يده على جرحه . وكانت قسماات وجهه تعبر عن الألم والقضب .. رفع رأسه في بطء ، ونظر إلى وجهها لوجه ، ثم قال بصوت مضطرب لا يفهم : « اشتقوه .. اشتقوهم جميعا .. ما عاذاها ! »

فأحاط بنا الجمهور على الفور . وجرونا نحو الباب الكبير . ولكنهم سرعان ما تركونا على حين فجأة . فسان زورين قد ظهر عند المدخل ، تتبعه كوكبة كبيرة من الفرسان ، قد أشهرت سيوفها . وأخذ العصاة يتعثرون في جميع الجهات ، وأخذ الفرسان يطاردونهم فيطمنون من بطعون ، ويأسرون من بأسرون . ونزل زورين عن حصانه ، فحيا أبوي ، ثم شد على يدي بقوة . وقال : « لقد وصلت في اللحظة المناسبة .. هذه إذن خطيبتك ! » . فتخرج وجهه ماريا ابغاثونفا ، بحمرة شديدة بلقت الاذنين . واقترب أبى من زورين ، وشكره بصوت هادئ على انفعال . وعانقته أمى وهى تتاديه بقولها : « يا ملائكا المنقل ! » .

سال وهو بنفوس في وجه الجريح : « من هذا ؟ » . فأجاب أبى في شيء من الزهو : « إنه رئيس العصاة .. لقد أعان الله يدي الضعيفة على معاقبة هذا الميء ، فشارت بذلك لدم ابنى ! » . وقلت لزورين : « انه شفايرين ! » .

- شفايرين ؟ . إنه ليسرني أن أراه . خذوه أيها الفرسان وقولوا للطبيب أن يعنى به عنايته بيوث عينه ! .. يجب حتما أن يستطيع شفايرين المثول أمام لجنة (قازان) السرية . انه أحد المجرمين الرئيسيين . ويمكن أن يكون لشهادته شأن كبير .

فتح شفايرين عينيته المتوجعتين . وكانت قسماات وجهه لا تعبر عن شيء غير الألم الجسمي ، فاضجعه الفرسان على معطفه . ومضوا به .

\*\*\*

ودخلنا غرف المنزل . فكنت أشعر بناتئ شديدا ، وأنا انظر حولي واتذكر أيام طفولتى .. لم يتبدل في البيت شيء ، بل كان كل شيء في مكانه المهود . ذلك أن شفايرين لم يسمح بنهب المنزل ، فقط احتفظ في اعماق نذالته بأشعثاز غريزي من كل عمل من هذا النوع .. وظهر الخدم في الدهليز .. انهم لم يشاركوا في العصيان أية مشاركة ، وقد فرحوا صادقا لاستردادنا حريتنا . وكان سافيليتش يتהל طربا .

يجب أن أذكر انه اثناء الجفول الذي سببه هجوم العصاة هرع سافيليتش إلى الأسطبل الذي كان فيه حصان شفايرين ، فأسرجه وأخرجه دون أن ينتبه إليه أحد ، وانتهر فرصة الجلبة - التي قامت في باحة المنزل - فمضى مسرعا إلى ضفة النهر ، فوجد هناك فرقة زورين تسيرج إلى جانب الماء .. وأتبا زورين بالخطر الذي فجر فيه ،

فاصدر زورين امره بان تسرج الخيل ، وان يتجه للفرسان نحو قريتنا في اعظم سرعة ممكنة ، وقد وصلوا - بحمد الله - قبل ان يغت الاوان .

واصر زورين على ان يظل رأس المسجل معروضا عند مدخل الحانة بضع ساعات .

وعاد الفرسان من مطاردتهم وقد اسروا عددا من اللصوص ، فاودعهم ذلك العنبر عينه ، الذي صمدنا فيه للحصار التاريخي . ثم اتفقنا ليذهب كل منا إلى غرفته . لقد كان ابواى المجوزان في حاجة إلى الراحة . وارتفعت انا على سريري ، وسرمان ما عططت في نوم عميق . لاننى لم يغمض لى جفن طوال الليلة البارحة . ومضى زورين يصدر اوامره .

وفي المساء تحلقنا في اليهو حول « الساور » ، نتحدث فرحين عن الخطر الذي نجونا منه . وسكبت لنا ماريا ايفانوفنا افداح الشاي . وجلست إلى جانبها لا اهتم بشيء سواها . وبدا على ابوى انهما ينتظران بعين الرضى إلى ملاقاة الحب التى بيئنا . ما زالت ذكرى هذه السهرة منقوشة في نفسى إلى اليوم . لقد كنت سعيدا . . كنت في ذروة السعادة . ما اندر مثل هذه اللحظات العذبة في حياتنا الشقية !

\*\*\*

وفي الصباح من الفداة ، جاء بعضهم بشيء ابى ان الفلاحين قد وفدوا إلى الساحة يملئون التوبة ويطلبون

الغفوة : « فخرج ابى إليهم . فلما ابصروه جنوا على الأرض » وقال ابى يخاطبهم : « ما الذى حملكم على العصيان ايها الحقيقى » . فاجابوا جميعا بصوت واحد : « عفسوك يا صاحب النبالة ! » .

- كلام جميل ! . « عفوك يا صاحب النبالة » . . . تركبون الحماقات . ثم تجبنون تطلبون الغفوة ! . . على كل حال . من اعترف بذنبه فقد كفر عنه بعض التكفير . . لقد عفوت عنكم . لان الله من على بعودة ابنى بشرو اندريتشى . - لقد اخطانا . لقد اخطانا !

- الجو ساح جميل . وهذا اوان حصاد العشب . فماذا علمتم خلال هذه الايام الثلاثة ايها الاضياء ؟ . . يا ستاروست ، ارسلهم جميعا إلى المراعى . وحاول ايها الحيوان الاشقر ان لا يأتى عيد القديس يوحنا إلا وقد تكدى العلف وفائم . هيا امضوا في سبيلكم !

فانحنى الفلاحون يحيون . ثم مضوا إلى عملهم كان شيئا لم يحدث .

لم يكن جورج شفايرين خطيرا . وقد ارسل مخفورا إلى قازان . . . وكنت اطل من نافذة غرفتى حين رفعوه إلى العربة التى ستقله إلى قازان ، فالتفت نظرانا . فخفض هو رأسه ، وغادرت انا النافذة بسرعة . خشيته ان يظهر المنتصر على عدوى في حال إرضائه وذلته .

وكان على زورين أن يتابع مهمته ، فقررت أن أصحبه ،  
برغم رغبتى الشديدة في قضاء بضعة أيام أخرى في أحضان  
أسرتى . وقبل الرحيل بيوم ، ذهبت إلى أبوى ، فأنضيت  
حتى لامست الأرض ، على عادة أهل ذلك الزمان ، وظللت  
إليهما الموافقة على زواجى بماريا ايفانوفنا . فانهضنى أبوى  
المجوزان وأعلنا عن موافقتهما وهما يدرفسان الدموع من  
شدة الفرح ، فمضيت أجنهما بماريا ايفانوفنا شاحبة  
مرتجفة ، فباركا زواجنا .. ولن أستطيع أن أصف ما شعرت  
به في تلك اللحظة . من مر بمثل هذا الموقف : يستطيع أن  
يفهمنى دون أن ألح في الوصف . أما من لم يمر بمثل هذا  
الموقف ، فلا يسمنى إلا أن أدلى لحاله ، وإلا أن أنصح  
- قبل أن يفوت الأوان - بأن يمشق ويطلب إلى أبويه  
مباركة زواجه .

وفي الغداة ، كانت فرقتنا على أهبة السير . فاستأذن  
زورين أسرتى بالرحيل ، وكنا جميعا على يقين من أن الأعمال  
الحربية ستنتهى في القريب ، وكنت آمل أن أستطيع  
الزواج في غضون شهر ، وقد عانقتنى ماريا ايفانوفنا على  
مراى من الجميع وهى تودعنى . وصعدت العربية يتبعنى  
سافيليتش . وسار الركب ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع  
أن أحول نظرى عن منزلنا ، الذى أتركه للمرة الثانية .. كان  
شعور يذير الشؤم يحتاج نفسى ، حتى لكان صوتا مجهولا  
كان يهتف بى أن محتى لم تنته بعد .. كان قلبى يوجس  
خيفة من لمحات جديدة .

\*\*\*

لن أصف هذه الحملة . ولا نهاية حرب بوجاتشيف .  
وحسبى أن أذكر أننا مررنا بقرى نهبا رجال الفاصب نهبا  
فظيما . ولم يكن لنا مناص من استلاب هؤلاء السكان  
البؤساء ما قد تركه لهم اللصوص .. كانوا لا يعرفون من  
يطيعون ومن يعصون . لم يبق من سلطات فى أى مكان ..  
كان أصحاب الأملاك مختبئين فى الغابات . وكانت عصابات  
اللصوص تجوب البلاد ترتكب الجرائم . وكان رؤساء  
القطعات الخاصة ، المكلفة بمطاردة بوجاتشيف - الذى أخذ  
ينهزم متجها نحو استراخان - يعملون وفقا لما يمليه عليهم  
هوامهم . فيما يقبون المذنب والبريء على حد سواء ، وراينا  
منطقة بكاملها قد شب فيها الحريق ، وأصبح أهلها فى حالة  
فظيعة من التشرد والجوع . إلا وقانا الله شهود ثورة شعبية  
روسية ، ثورة مجنونة لا ترحم .. إن أولئك الذين يفكرون  
فى نهضة ثورات فى بلادنا ، إما أنهم شبان لا يتصورون بعواقب  
الأمور . وإما أنهم آتاس لا يعرفون طبيعة شعبهم . وإما أنهم  
رجال فساد القلوب لا يقيمون وزنا لحياتهم ولا لحياة غيرهم  
من الناس .

لقد فر بوجاتشيف يطارده ايفان ايفانوفتش مكلسون .  
ثم ما لبثنا أن بلغتنا أنباء هزيمته الحاسمة . وقد تلقى  
زورين - أخيرا - نبأ أسر هذا المحتال ، وتلقى فى الوقت  
نفسه أمرا بوقف تقدمه . لقد انتهت الحرب . وأصبح  
وسعى أن أعود إلى أهلى .. واشتعل قلبى حماسة ، حين  
تصورت أننى أستطيع أن أعانق أبوى بعد قليل ، وأن أرى  
ماريا ايفانوفنا التى لم يلبثنى عيشة أى غدا .

كالطفل الصغير من شدة الفرح ، وكان زورين يضحك .  
ويهرز كتفيه قائلا : « لا ، لا ، العاقبة وخيمة .. إنك  
بالزواج تضع نفسك في غير طائل ! » .

على أن شعورا غريبا كان يعكر على فرحى . كنت على  
الرغم منى أفكر في ذلك اللص .. في الدماء البريئة التى  
سفكها ، وفي العذاب الذى ينتظره . وكان ذلك يلفنى ..  
كنت أخاطبه في سرى أسفا : « آه منك يا امليان .. لماذا  
لم تصبك طعنة من رمح . لماذا لم تصبك وصاصة من  
مسدس ؟ .. ليت شيئا من هذا قد وقع لك : إذن لت  
ميتة حسنة ! » .

ماذا تريدون ؟ .. كنت لا أستطيع أن أفكر فيه ، دون  
أن أتذكر أنه عما عنى في أخرج لحظة من لحظات حياتى :  
وإنه انقذ خطيبتى من برائن شفايرين اللئيم الكريه .

وأذن لى زورين بالرحيل .. وكنت اتعباً للفر بعد  
بضعة أيام ، لألقى اهلى وارى ماريا ابفانوفنا ، لولا أن صاعقة  
لم تكن في الحسبان وقمت على راسى . ففى اليوم المعين  
الرحيل ، فى اللحظة التى كنت أهم فيها أن أخذ سمى إلى  
قريتنا ، دخل على زورين ، وقد امسك بيده ورقة .  
وظهرت على وجهه علائم غم عميق .. شعرت بقلبى ينقبض  
فجأة .. شعرت بخوف لا أعلم أنا نفسى سببا له . وصرف  
زورين خادمى ، وقال أنه يريد أن يكلمنى فى أمر من الأمور .  
فسأله قلنا : « ماذا هنالك ؟ » .

فقال وهو يعد إلى الورقة : « شيء مزعج .. انظر ماذا  
نقليت منذ هنيهة ! » . فتصفحت الورقة ، فإذا هى أمر  
سرى موجه إلى جميع رؤساء القطعات الخاصة ، بأن  
يقبضوا على حيث يجدوننى : وأن يسوقونى - على الفور -  
مخفورا إلى « لجنة التحقيق » بجازان ، وهى اللجنة المكلفة  
بالتحقيق فى قضية بوجاتشيف .. وكادت الورقة تسقط من  
يدى . وقال زورين :

- يوسفنى اتنى مضطر إلى تنفيذ الأمر ! .. لعل السلطات  
قد تراثت إليها أنباء أسفارك الودية مع بوجاتشيف . أرجو  
أن لا يجر هذا ذيولا سيئة ، وأن تستطيع تبرير عمك أمام  
اللجنة . لا تفقد شجاعتك ، وسافر من فورك !

كنت مرتاح الضمير ، لا أخشى أن ادان بشيء ، وإنما كان  
يرجعنى أن لحظة اللقاء الجميل قد تتأخر بضعة أشهر .  
وأعدت العربة ، وأبدى زورين كثيرا من المودة والصدقة ،  
وقمنى لى حظا سعيدا . وصعدت العربة ، فجلس من يمينى  
جندى ، وعن شمالي جندى آخر ، وقد شهر كل منهما  
سيفه . وسارت بنا العربة فى الطريق الكبير .

- ١٤ -

## وأخيرا ، انتهت المحن !

« إشاعات الناس كضجة البحر » - مثل

كنت على يقين من أن سفرى من ( أورنبورج ) - دون استئذان - هو أساس هذه القضية كلها . وكان في رسمى أن أبرو سفرى هذا بلا كبير عناء . فإن الخروج من ( أورنبورج ) لم يكن مباحا فحسب ، بل كان محبذا أيضا ؛ وإذا كان لابد من الاتهام فيجب أن اتهم بشدة الحماسة والاخلاص والتفانى . لا بالمصيان والخروج على إرادة السلطة . غير أن عددا من القرائن يمكن أن يأتى مؤيدا لوجود علاقات ودية بينى وبين بوجاتشيف ، ويمكن أن تبدو هذه العلاقات مشبوهة على أقل تقدير . هكذا ظللت طوال الوقت - الذى استغرقتة الرحلة - أفكر فى الاستجواب الذى ينتظرنى ، وأفكر فى الأجوبة التى يجب على أن أسوقها . وقررت أن اطلع المحكمة على الحقيقة كلها ، لأننى رايت أن هذا التبرير أبسط أنواع التبرير وأسلمها عاقبة .

ووصلت إلى قازان .. كانت المدينة مخربة . وقد انت عليها الحرائق ، فما ترى فى مكان البيوت إلا ركاما محترقا . وجدراننا لا أبواب فيها ولا نوافذ . تلك كانت آثار مرور بوجاتشيف !.. وقادونى إلى القلعة التى ظلت قائمة فى وسط الخرائب لم يمسها أذى . ووضعنى الجنود بين يدي

الضابط المناوب ، فاستدعى حدادا وضع القيد فى رجلي . واحكم أقفاله بقوة . ثم قادونى إلى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة مظلمة ضيقة عارية الجدران ، ليس لها إلا نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية .. أن بداية كهذه لا تبشر بخير . غير اننى لم أفقد الشجاعة ولا الرجاء . فكنت اعزى نفسى بما يمزى به جميع المحزونين أنفسهم . وبعد أن ذقت - للمرة الأولى - حلاوة الصلاة تخرج من قلب طاهر - وإن يكن ممزقا - نبت نوما هادئا ، دون أن أشغل بالى بما ينتظرنى .

وايقظنى الحارس بكرة فى الغداة ، وأعلمنى أن اللجنة تريد أن ترانى . جاء جنديان فاجتازا بى الباحة ، ثم ذهبا إلى منزل الأمر . حتى إذا وصلنا إلى الدهليز ، تركانى ادخل الحجرات وحدى .. ودخلت فى بهو كبير ، فرأيت رجلين قد جلسا إلى منضدة مفروشة بأوراق كثيرة : أحدهما لواء ( جنرال ) ، قاسى النظرة ، مكفهر الوجه .. والاخر رئيس شاب . من الحرس ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لطيف المظهر . منطلق الحركة . وإلى جانب النافذة : جلس أحد الكتاب إلى منضدة خاصة ، وقد وضع ريشة وراء أذنه . ومال على صفحة من الورق متعبا لتسجيل أقوالى . وبدأ الاستجواب : فسلت عن اسمى وعن صفتى ، ثم سألنى القائد الست ابن أندريه بتروفتش جرينيف ، فلما أجبته بنعم ، قال بصوت قاس : « أنت ابن لورجن ، محترم كابيك ابن مشين مثلك ! »

فاجبت - في هدوء - بأننى آمل ان أبدو جميع الوشايات التى ترامت إليهم عنى . كائنه ما كانت . وذلك بتقرير الأمور على حقيقتها فى صراحة وصدق . فقال وهو يصغر وجهه : « انت يا صاحبي شاطر - ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين امثالك ! » .. عندئذ سألتنى الضابط عن الظروف التى التحقت فيها بمصاية بوجاتشيف . وعن المهمات التى عهد بها إلى بوجاتشيف هذا . فاجبت - مستاء - بأننى نبيل وضابط ، واننى بصفتى هذه لا يمكن أن ادخل فى خدمة بوجاتشيف ، ولا أن أقبل أن يكمل إلى أية مهمة . فتابع السائل يقول :

- فكيف امكن إذن « أن لا ينجو من اللص إلا حضرة النبيل الضابط ، بينما شفق جميع رفاقه على اشنع صورة ؟ وكيف امكن أن يمضى هذا النبيل الضابط عينه إلى وليمة مع اللصوص . يؤاكلهم ويشاربهم كأنه صديق حميم ؟ .. وكيف امكن أن يقبل من المجرم الأول عددا من الهدايا : ممطفا وحصانا وكيسا من المال ؟ .. من أين جاءت هذه الصداقة ، وعلى أى أساس امكن أن تقوم إن لم تقم على أساس الخيانة ، أو على أساس جيانة خائنة مجرمة على أقل تقدير ؟

لقد اهائنتى كلمات ضابط الحرس إهانة عميقة . فبدات الدفاع عن نفسي فى حرارة . فقصصت كيف عرفت بوجاتشيف فى الفلاة إبان العاصفة ، وكيف أنه تعرفنى يوم الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، فلم يامر بشنقى . واعترفت

بأننى قبلت المعطف والحصان ، ولكننى فكرت اننى دافعت عن الحصن ضد جيوش اللص إلى آخر لحظة ، ثم اشهدت القائد اللواء - الذى كنت تحت إمرته - على سلوكي إيام حصار اورنبورج ، ذلك الحصار الأليم .. وعندئذ تناول المعجوز القاسى من على المنضدة رسالة مفضوضة ، واخذ يقرأ جهارا :

« جوابا على كتاب سعادتكم ، بصدد الضابط حامل العلم جرينيف ، المتهم بالاشترارك فى الاضطرابات القائمة وبوجود علاقات بينه وبين اللص : علاقات لم تسمح بها القيادة ولا تتفق مع البمين الذى خلقه » يشرفنى أن انهى إليكم ما يلى : أن الضابط جرينيف المذكور كان فى الخدمة بأورنبورج . من أول تشرين الأول ( أكتوبر ) إلى اليوم الرابع والعشرين من شباط ( فبراير ) من هذه السنة . وفى هذا التاريخ ترك المدينة . ولم يظهر بعد ذلك فى القطعات التابعة لقيادتى . وقد علمت من بعض الفارين إلى ممسكر العدو ، انهم راوه فى مركز بوجاتشيف ، وأن هذا صحبه إلى حصن بيلوجورسكايا الذى كان يعمل فيه . اما عن سلوكه ، فأننى استطيع .. » .

وهنا انقطع عن القراءة ، وقال لى بصوت خشن : « والآن ماذا تقول ؟ » .

كنت على ان اتم شروحي وعلى ان اسرد تاريخ علاقتى بماريا ايفانوفنا ، فى مثل صراحتى حين رويت ما عدت ذلك ، لولا اننى شعرت - على حين غرة - بظهور ذلك كبير

لا سبيل إلى مقاومته . لقد خطر على بالي اننى إذا اسميت  
الآنسة ميرونوف ، فلا بد للجنة عندئذ من أن تستدعيها ،  
فلما تصورت اسمها مقحما في وشايات ساقلة ، وتصورتهم  
يستدعونها لمواجهة اقوالها باقوالى . اضطربت اضطرابا  
شديدا حتى صرت اتردد في كلامى وانلثتم .. فلما لاحظ  
القضاة اضطرابى ، كان لابد ان يغيروا رأيهم في .. بعد ان  
كانوا يصفون إلى كلامى في شيء من اللطف وحسن الظن .  
فاسدر اللواء امره بإحضار « مجرم الامس » .. فالتفت  
نحو الباب في حركة عنيفة ، وأنا أتحرق شوقا رؤبة ذلك  
الذى وشى بى . وما هى إلا لحظات حتى سمعت رنين  
السلاسل ، وفتح الباب ، فإذا بى أمام شغابرين .. شدهت  
للتغيير الذى طرا عليه . لقد كان شاحبا شحوبا هائلا .  
وكان شعره .. الذى عهدته منذ زمن قليل في سواد الفحم -  
أبيض تام البياض ، وقد تهدلت لحبته طويلة كثة .

وكرر شغابرين اتهاماته بصوت ضعيف ، ولكن بلهجة  
قاطعة . فزعم ان بوجاتشيف ارسلنى إلى ( اورنيورج )  
جاسوسا ، وإننى كنت أخرج من وراء الأسوار - في كل  
يوم - أبادل رجال بوجاتشيف بضع طلقات وهمية من  
الرصاص ، واسلمهم تقارير مكتوبة عن كل ما يجرى في  
داخل المدينة . ثم التحقت علانية بمعسكر القاصب ،  
وصحبته في إحدى جولاته من حصن إلى آخر .. وإننى  
كنت أحاول أن أسف الخونة الآخرين - رفائى - رجاء أن  
أحتل مراكزهم ، وأن أستفيد مما يوزعه بوجاتشيف من  
مكافآت .

واصفيت إلى كلام شغابرين صامتا . وسرنى من كلامه  
شيء واحد : هو انه لم يأت على اسم ماريا ايفانوفنا بذكر .  
ترى الآن كرامته يجرحها تذكر هذه القضاة التى احتقرت  
حبه : أم لأن قلبه ما زال يحتفظ بشيء مما حملنى أنا على  
الكوت : .. المهم - على كل حال - ان اسم ابنة أمر موقع  
يلوجورسكايا لم يذكر أمام لجنة التحقيق . وهذا كله  
جعلنى أصر على ما عزمتم عليه . حتى إذا سألنى القضاة هل  
نعم ما أقوله في الرد على اقوال شغابرين ، اجبت بأننى أصر  
على اقوالى الاولى . وبأننى لا أستطيع أن افضى بشيء آخر ،  
فأمر اللواء بإخراجنا من البهو ، فخرجنا معا . ونظرت إلى  
شغابرين في هدوء ، دون أن أوجه إليه كلمة واحدة ، فابتسم  
انسمامة خبيثة ثم رفع السلاسل التى تقيد رجله . واصرع  
الحطو يتقدمنى في الخروج .. وأعادنى الجنود إلى سجنى ،  
ثم لم استجوب بعد تلك اللحظة أبدا .

\*\*\*

وما ساقصة بعد الآن لم أشهده بنفسى ، وإنما روى لى  
مرات كثيرة . حتى نقشت تفاصيله جميعا في ذاكرتى ..  
حتى لبتراى لى في بعض الأحيان اننى شهدته بنفسى .

أحتفى ابواى بماريا ايفانوفنا حفاوة عظيمة ، هى مما  
يتميز به أناس الزمان القديم . ورايا في إيوانها يتيمه بانسة  
وفى إحسان معاملتها ، بركة إلهية هبطت عليهما من السماء .  
ثم ما لبسا أن شعرا نحوهما بحب صادق .. ذلك ان  
يستحيل ان يعرفيا أمرؤ دون أن ..

لا يرى في عاطفتي نحوها نزوة من نزوات الشباب . أما أمي ، فقد أصبحت لا تفكر إلا في شيء واحد ، هو أن ترى ولدها « بتروش » يتزوج هذه الفتاة الفاتنة . ابنة القضاة الرئيس .

وقد صعدت الأسرة حين بلغها نبأ اعتقالى . وكانت ماريا ابغانوفنا قد روت لأبوى قصة علاقتى الغريبة بوجانثيف .. روتها تفصيلا في بساطة قامة ، حتى أن أبوى لم يساورهما من ذلك أى قلق ، بل كانت القصة كلها موضع تنمر وضحك .. كان أبى لا يستطيع أن يصدق أن من الممكن أن أسار في هذه الثورة الحظيرة ، التى لم يكن لها من غاية إلا قلب العرش والقضاء على النبلاء . وأخذ يسأل سافليتش ويلع في السؤال ، فلم يخف عنه سافليتش أن سيده الشاب قد زار أميليان بوجانثيف ، وأن هذا اللص كان يحبني فيما يظهر .. إلا أنه حلف أغلظ الإيمان أن المسألة ليست مسألة خيانة البتة ، فهذا روع أبوى . وأخذا ينتظران الأنباء المطمئنة بفارغ صبر . أما ماريا ابغانوفنا ، فكانت في حالة نظيمة من القلق .. إلا أنها كانت صامتة لا تتكلم ، لأنها متواضعة متحفظة ، إلى أبعد حدود التواضع والتحفظ .

وانقضت بضعة أسابيع على هذا النحو . وفجأة ، تلقى أبى - في ذات يوم - رسالة من ( سان بطرسبرج ) ، بعث بها إليه قريبنا الأمير « ب .. » وفيها يقول أن شبهات اشتراكى في خطط العصاة قد ثبتت ثبوتا قاطعا - مع الأسف

- وأن العقوبة القصوى كان ينبغي أن تكون من نصيبى ، لولا أن « الامبراطورة » - احترام لآثر الأب وسنه - قررت أن تنعم على الابن المجرم ، فأبدلت الأعدام العلنى المشين بنفى مؤبد إلى أقاصى سيبيريا ..

كلدت هذه الصدمة المفاجئة أن تقتل أبى ، فإذا هو ينقصد رباطة جاشه . وإذا الحزن الذى يحتمله عادة في صمت ، يظهر الآن في أقوال مره . فكان لاينى يكرر : « كيف .. ! » ابنى يسارك في أعمال بوجانثيف ! .. اللهم رحمتك ! انصل بى الأمور إلى هذا الحد .. والامبراطورة تخفف عقوبة الأعدام ! .. ولكن هل يخفف هذا من كوابى ! ليس موفه هو الذى بزعجنى ! .. لقد مات جدى الأكبر على القسلة وهو يدافع عما كان يمتقده أمرا مقدسا ، وعذب أبى مع قولنسكى وفروستوف . أما أن بحث نبيل من النبلاء بيمينه ، فينضم إلى لصوص ، إلى قتلة ، إلى عبيد هاربين ، فذلك عار يلطخ أسرنا كلها ! .. »

ذعرت أمى من هذا اليأس الذى سيطر على أبى ، فأصبحت لا تجرؤ على أن تبكى أمامه . وحالت أن ترد إليه أمه ! فأخذت تحدته عن كذب الإشاعات ، ومن تقلل آراء الناس . وكانت ماريا ابغانوفنا تتألم أكثر من الجميع ، لأنها والقة من اننى أستطيع أن أبرر عملى ! فحزرت بسبب صمتى ، واتهمت نفسها بأنها هى السبب في هذا البلاء . كانت تخفى دموعها وآلامها عن الجميع ،



وسائل إنقاذي .. وفي ذات مساء ، كان أبى جالسا على الديوان يقليب جريدة البلاط . دون ان تحدث فيه ما كانت تحدثه عادة من أثر ، وذلك لأن فكره الآن مسترسل في أمور أخرى .. وكان يصغر لحننا عسكريا قديما . وكانت أمى تحيك قميصا من الصوف وهى صامئة . تنحدر دموعها على القميص من حين إلى حين .. وكانت ماريا ايفانوفنا معها . تعمل في خياطة شيء من الأشياء ، فإذا هى تملن لهما على حين غرة ، أنها مضطرا إلى السفر إلى سان بطرسبرج . وتطلب إليهما أن يعطياها ما هى في حاجة إليه من مال . وحزنت أمى لذلك حزنا شديدا . وقالت : « مالك وسان بطرسبرج لا .. أتريدن أن تتركينا أيضا ؟ » .

فأجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها متوقف على هذا السفر ، وأنها ذاهبة إلى المعظماء تطلب حمايتهم ومعونتهم . بصفتها ابنة ضابط قضى نحبه في سبيل واجبه .

خفى أبى رأسه .. لقد كان يؤله كل كلام يذكر بجريمة ابنه الوهمية « حتى لكأنه يرى في مثل هذا الكلام لوما وتقريبا . فقال وهو يطلق من صدره زفرة حرى : « امضى إلى شانك يا ابنتى .. انسا لا نريد أن نحول بينك وبين السعادة . اسأل الله أن يقيض لك زوجا لم تدنسه الخيانة ! » ثم نهض وترك الغرفة .

فلما أصبحت وحيدة مع أمى ، أفضت إليها ببعض ما عقدت النية عليه ، فتهلل وجه أمى ، وعانقت ماريا في حرارة . وأبتلعت إلى الله أن يبارك جهود كتنها القليلة . ثم أعدت لها

عدة السفر . وما هى إلا بضعة أيام ، حتى رحلت تصحبها خادمتها الأمينة بالاشا . وبصحبا كذلك سافليتش . إن هذا المعجوز الذى نرقت بينى وبينه ظروف قاهرة . كان يعزبه أن يتصور أنه يخدم الفتاة التى ستكون زوجتى في المستقبل !

\*\*\*

وصلت ماريا ايفانوفنا إلى ( صوفيا ) . دون أن تعترضها صعوبات . فلما علمت أن البلاط يقيم - في تلك الآونة - في مدينة ( سلو ) (١) قررت أن تتوقف في هذه المدينة . وأقامت لدى زوجة محبر البريد ، وسرعان ما أنباتها هذه أنها ابنة أخى الوفاة في القصر ، ثم أطلعتها على جميع أسرار القصر . فذكرت لها في أية ساعة تنهض الإمبراطورة من نومها ، وفي أية ساعة تحتس قوتها ، وفي أية ساعة تقوم بنزهتها .. وذكرت لها أسماء المعظماء الذين يحيطون الآن بالإمبراطورة . بل حدثتها عما قالته الإمبراطورة أمس على مائدة الطعام . وسعت الشخص الذى استقبلته في المساء .. الخ .

إن هذا الحديث الذى أرسلته « آنا فاسيليفنا » يساوى صفحات من التاريخ ، يمكن أن يستفيد منها المؤرخون في المستقبل . وقد أصقت « ماريا ايفانوفنا » إلى هذا الحديث في انبها شديد . ثم فامتنا إلى الحديقة تنزهان فيها ، فقصت آنا فاسيليفنا تاريخ كل ممر وكل جسر . وبعد أن

١. مقر إمبراطورى يتبع على يد القصور ومدرسة فرسان من سان بطرسبرج ، وصوفيا إحدى ضواحيها

تنزهتا ما شاء لهما التنزه ، عادتا إلى البيت وقد سرت كل منهما بالأخرى أيما سرور .

وفي الغداة ، استيقظت ماريا ايفانوفنا من نومها مبكرة ، فارتدت ثيابها في رفق ، ومضت إلى الحديقة . كان الصباح جميلا : فالشمس تلقى اشعتها على ذرى اشجار الزيزفون التي احال لونها نسيم الخريف ، والبحيرة تلمع تحت أشعة الشمس ببريق جميل ، والأوز يستيقظ فيخرج مزهوا من الأدغال التي تحف بشواطئ البحيرة . واخذت ماريا ايفانوفنا تطوف في مرج جميل « اقيم في وسطه نصيب تذكاري » تخليدا لذكرى الانتصارات الرائعة التي حققتها الكونت « بئرو الكستدروفيتش روميانتزيف » منذ مدة يسيرة . وانها لذلك ، فاذا هي ترى كلبا صغيرا ابيض ، من عرق إنجليزى ، يمدو نحوها وهو يعوى . ناخذها خوف فوقفت في مكانها لا تتحرك ، فاذا هي تسمع صوتا نسبوا جميلا يقول : « لا تخافى .. انه لا يعض ! » .

فالتفتت ماريا ، فاذا هي ترى سيدة جالسة على مقعد امام التمثال . فجاءت إليها ، وجلست على الطرف الآخر من المقعد . كانت هذه السيدة لا تنقطع عن التفرس فيها . وكانت ماريا ايفانوفنا تلقى على السيدة نظرات خجلية من حين إلى حين ، فاستطاعت بهذه النظرات أن تفحصها من أخمص القدم إلى قمة الرأس .. كانت السيدة ترتدى ثوبا ابيض من ثياب الصباح ، وممطفا من فراء ، وقبعة من قبعات الماء . وكانت تبدو في الأربعين من عمرها ، موروثة

الوجنتين : على وجهها سيماء الهلوء والوقار ، وفي عينيها الزرقاوين وابتسامتها الرقيقة سحر لا يقاوم . واخيرا قطعت السيدة جبل الصمت . قالت : « لا شك انك غريبة عن البلدة » .

— نعم يا سيدتى . لقد وصلت امس من الاقاليم .

— وهل وصلت مع ذوك ؟

— لا يا سيدتى ، فانا وحيدة .

— وحيدة ؟ .. ولكنك ما زلت في ريعان الصبا !

— ليس لى أب ولا أم ..

— لا شك انك ايتت لشأن من الشؤون .

— نعم يا سيدتى ، اتيت التمس أمرا من الإمبراطورة .

— إنك يتيمة ، فملكك جئت ترغمين شكوى من ظلامة وقعت عليك .

— لا يا سيدتى .. ما جئت أطلب حقا ، وإنما جئت التمس عفوا !

— هل لى أن أسالك من انت ؟

— انا ابنة الضابط الرئيس ميرونوف .

— الرئيس ميرونوف ؟ .. ذلك الذى كان أمر أحد

حصون أورنبورج ؟

— نعم يا سيدتى .

وظهر التأثير على السيدة

رفقة وعطفا : « استمعك

تأملت وقد وادعت ليجنهما

استغفرا إذا غفلت في شوقك

الخاصة .. ولكنى ممن يحفظون بالاستقبال فى بلاط الإمبراطورة ، فأرجو أن تشرحى لى طلبك ، عسى أن أتيك فى شئ ! » .

فنهضت ماريا ايفانوفنا من مكانها - وانحنى تشكر السيدة فى احترام .. أن كل شئ فى هذه السيدة المجهولة يجذب القلب ويوحى بالثقة . استلثت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة مطوية ، ومشتها إلى هذه الإنسانة التى تولت حمايتها على غير انتظار . وأخذت السيدة تقرأ الورقة بينها وبين نفسها .. وكانت - فى أول الأمر - تقرأ فى انتباه جميل كريم . إلا أن قسماتها قسمت فجأة . وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بنظرها أيسر حركة من حركاتها ، فخافت من هذا التغير الذى طرأ على وجهها ، بعد أن كان - منذ دقيقة - هادئا كل الهدوء جميلا كل الجمال .

قالت السيدة فى لهجة جافة : « تطلبين العفو عن جريئى ؟ .. أن الإمبراطورة لا تستطيع أن تبرئ هذا الجانى .. أنه لم يلحق بالثورة عن جهل أو طيش ، وإنما هو شقى خطر لا يعرف الإيمان ولا يرمى حرمة القانون ! » .

فصرخت ماريا ايفانوفنا : « ليس هذا صحيحا ! » . فنهضت السيدة ، وقد تضرع وجهها بحمرة شديدة ، على حين فجأة : « كيف لا يكون هذا صحيحا ؟ » .

- أقسم لك أنه غير صحيح .. أننى أعرف كل شئ ، سأقص عليك كل شئ .. من أجلنى أنا وحدى ، إنما عرض

نفسه لكل ما وقع له . ولئن لم يشأ أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة ، فذلك حتى لا يقحمنى فى هذه القضية !

ثم أخذت تنصص عليها - فى حرارة - كل ما قصصناه عليك أيها القارئ ، فأصغت إليها السيدة فى انتباه ، ثم سألتها عن المكان الذى تقيم فيه الآن . فلما سمعت اسم آنا فاسيليفنا ، قالت وهى تبسم : « ها .. نعم ، عرفت .. وداعا ! .. لا تتحدثى إلى أحد عن لقائنا .. أمل أن لا تضطرى إلى انتظار الجواب مدة طويلة ! » . ثم نهضت ، ومضت إلى سيبلها . وعادت ماريا ايفانوفنا إلى مسكن آنا فاسيليفنا وقبلها يغض فرحا ورجاء .

لامتها «آنا» على نزهتها الصباحية ، لأن هذه النزهة قد نضر بصحة الفتاة . ثم أتت بسماور الشاي . وفيما هى تنطلق فى حكاياتها عن القصر - هذه الحكايات التى لا ينضب لها معين - إذا بعربة تدخل الباحة ، وتتوقف أمام الباب ، فيتزل منها خادم من خدم القصر ، ويعلن أن صاحبة الجلالة تدعو إليها الأنسة ميرونوف .

فانطلقت آنا فاسيليفنا من ذلك اشد الانفعال ، وأخذت تتحرك فى اضطراب ، وهتفت تخاطب ماريا : يا إلهى ! .. أن صاحبة الجلالة تدعوك إلى لقائنا . كيف عرفت أنك هنا ؟ كيف تستطيعين أن تمشى بين يديها يا بنيتى ! .. اعتقد أنك لا تجيدين التقدم إليها على النحو اللائق .. ليتنى أستطيع الذهاب معك ، إذن لا أكون مثلك بعطش الأرصادات .

ثم كيف تذهبين إليها وانت في ثياب السفر هذه ؟ .. ليتنى ارسل احدا إلى القابلة أسأله أن تعبرك ثوبها الأصفر ! » .  
فقال الخادم أن مشيئة صاحبة الجلالة أن تحضر إليها ماريا ايفانوفنا وحدها ، كيفما تكون . فلم يبق ثمة مجال للأخذ والرد . فصعدت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت إلى القصر تصحبها نصائح آنا فاسيليفنا ودعواتها .

\*\*\*

شعرت ماريا ايفانوفنا أن مصيرنا رهن بهذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق تارة ، ويتقبض من الخوف تارة أخرى . وما هي إلا بضعة دقائق حتى توقفت العربة أمام القصر . واخذت ماريا ايفانوفنا تصعد الدرج وهي ترتعد . وكانت الأبواب تنفتح امامها على مصاريحها .. واجتازت سلسلة كبيرة من الحجرات الفخمة لم تر فيها احدا . وكان الوصف يرشدها إلى الطريق ، فاقترب - أخيرا - من باب مفلق ، وقال أنه داخل يؤذن بقومها .. وشركها تنتظر .

كانت من شدة الخوف - وهي تتصور أنها ستلقى الامبراطورة وجها لوجه - بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وما هي إلا لحظة ، حتى فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا حجرة زينة الامبراطورة .

كانت الامبراطورة جالسة أمام مرآة ، وقد حف بها عدد

من الوصفاء . قلما اقبلت ماريا تباعد الوصفاء في كثير من الاحترام ، يفسح لها طريق المرور إلى الامبراطورة .

والتفتت الامبراطورة بوجهها الذي يفيض كرما ونبلا ، فاذا ماريا ترى نفسها أمام تلك السيدة التي اقصت إليها بقصتها منذ قليل في كثير من الصراحة . نادتها الامبراطورة إليها ، وقالت لها في ابتسامة : « يسرنى أن أحقق ما قطعته لك من عهد ، وأن انظر إلى طلبك بعين الاعتبار . لقد انتهت قضيتك ، واقتنعت ببراءة خطيبك .. وهذه رسالة منى أرجو أن تحيلها إلى حبيبك بيدك ! » .

فتناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد مرتجفة ، واخذت تبكي ، وارتمت على قدمي الامبراطورة ، فانهضتها الامبراطورة ، وقبلتها . ثم قالت لها : « اعلم أنك لست بالفتية ، إلا أن لإنسة الرئيس ميرونوف علينا حقوقا .. لا يقلقنا المستقبل ، فساتولي تقديم ما يوفر لك حياة رحية ! » .

ويعد أن غمرتها بمدايعاتها ، أفنت لها بالانصراف . فعادت إلى مسكن آنا فاسيليفنا على العربة عينها التي أقلتتها إلى القصر . وهناك افترقتها آنا فاسيليفنا بوابل من الأسئلة . كانت تجيب عليها ماريا كيفما اتفق . ورقم أن « آنا فاسيليفنا » استاءت من ضعف ذاكرة الصبية ، فانها ففرت لها ذلك في كثير من الكرم والسخاء ، اذ عزته إلى الخجل الذي تتصف به بنات الاقاليم .

الريف - في ذلك اليوم نفسه - دون أن تغريها زيارة سان بطرسبرج .

.....  
.....

هنا تنتهى مذكرات بترو اندريفتش جرينيف ، وقد علينا مما تتناقله الأسرة أبا عن جد من أحاديث ، أن بترو اندريفتش قد أطلق سراحه بأمر امبراطوري في أواخر عام ١٧٧٤ ، وأنه شهد إعدام بوجاتشيف ، وأن بوجاتشيف هذا قد رآه في الحشد فعرفه ، فحياه بهز رأسه ، وأن هذا الرأس نفسه عرض على الشعب بعد لحظة مضرجا بدمه . وقد تزوج بترو اندريفتش بماريا ايفانوفنا بعد ذلك بقليل ، وما هي ذريتهما تزدهر الآن بمقاطعة ( سميرسك ) .

.....  
.....

على بعد ثلاثين فرسحا من بلدة س ( ٠٠ ) تقوم قرية يملكها عشرة أشخاص . وفي أحد بيوت هذه القرية ، يدخل الداخل فتطالعه في صدر إحدى قاعاتها رسالة موضوعة في إطار ، هي الرسالة التي كتبها كاترين الثانية بخط يدها ، وبعثت بها إلى والد بترو اندريفتش ، تبريء ابنه مما نسب إليه ، وتطري في ابنة الضابط ميرونوف نيل قلبها وحسن ذكائها .

إن أحد أحفاد بترو اندريفتش هو الذي قدم إلينا مخطوطة هذه المذكرات - التي كتبها جده - حين علم أننا نعمل في تاريخ هذه الفترة . فقررنا أن ننشر المخطوطة مستقلة ، بعد أن استأذننا في ذلك أصحاب الشأن . ولم نزد عليها إلا بضعة أبيات من الشعر تناسب المقام ، صدرنا بها مطالع الفصول ، كما أخذنا على عاتقنا تبديل بعض أسماء الأعلام .

( ١٨٣٣ - ١٨٣٦ )

ناشر المخطوطة : الكسندر بوشكين

« تم »



## سلسلة مطبوعات كتابي

### صدر من هذه السلسلة :

- ١ - وجوه الحب السبعة .
- ٢ - الحب الاول .
- ٣ - جريمة حب .
- ٤ - أنا كارينينا .
- ٥ - الحرب والسلام ج ١ .
- ٦ - الحرب والسلام ج ٢ .
- ٧ - الخاطئة .
- ٨ - البؤساء ج ١ .
- ٩ - مدام بوفاري ج ١ .
- ١٠ - مدام بوفاري ج ٢ .
- ١١ - البؤساء ج ٢ .
- ١٢ - الخطيئة الاولى .
- ١٣ - المفتنون .
- ١٤ - الحب هو الكنز .
- ١٥ - فن الحياة .
- ١٦ - د. زيفاجو ج ١ .
- ١٧ - د. زيفاجو ج ٢ .
- ١٨ - د. زيفاجو ج ٣ .
- ١٩ - د. زيفاجو ج ٤ .
- ٢٠ - البؤساء ج ٣ .
- ٢١ - الحرب والسلام ج ٣ .
- ٢٢ - محاكمة سقراط .
- ٢٣ - الجريمة لا تفيد .
- ٢٤ - نساء ومآسي في ساحة العدالة .
- ٢٥ - الحرب والسلام ج ٤ .
- ٢٦ - تعلم كيف تسترخي .
- ٢٧ - مركب النقص .
- ٢٨ - غرام سوان ج ١ .
- ٢٩ - غرام سوان ج ٢ .
- ٣٠ - كيف نجحوا في الحياة .
- ٣١ - كيف تحصل على الثروة .
- ٣٢ - غرام سوان ج ٣ .
- ٣٣ - لماذا أنت عصبي .
- ٣٤ - عش بحكمة تعش سليما .

- ٣٥ - زواج الحب .
- ٣٦ - التحليل النفسي للأحلام .
- ٣٧ - حذار من الشفقة .
- ٣٨ - أمير الانتقام .
- ٣٩ - اعترافات جان جاك روسو ج ١ .
- ٤٠ - اعترافات جان جاك روسو ج ٢ .
- ٤١ - اعترافات جان جاك روسو ج ٣ .
- ٤٢ - اعترافات جان جاك روسو ج ٤ .
- ٤٣ - اعترافات جان جاك روسو ج ٥ .
- ٤٤ - مرتفعات ويلدريج ج ١ .
- ٤٥ - مرتفعات ويلدريج ج ٢ .
- ٤٦ - مرتفعات ويلدريج ج ٣ .
- ٤٧ - قلوب ضالة .
- ٤٨ - أوديب .
- ٤٩ - عاشقات في الخريف .
- ٥٠ - أسرار الجاسوسية .
- ٥١ - الابن الضال .
- ٥٢ - ارواح هالمة .
- ٥٣ - الثمار للوطن .
- ٥٤ - المسبحة ج ١ .
- ٥٥ - المسبحة ج ٢ .
- ٥٦ - بشر سبع ج ١ .
- ٥٧ - بشر سبع ج ٢ .
- ٥٨ - جين أيسر ج ١ .
- ٥٩ - جين أيسر ج ٢ .
- ٦٠ - جين أيسر ج ٣ .

السلسلة ٣٤ - ٣٥

**Looloo**  
www.dvd4arab.com



مطبوعات كتابي  
إصدار جديد

## عزيزي القارئ :

هذه الرواية التي بين يديك تمثل لونا من الأدب الرومانسي ، وتدور أحداث هذه الرواية في مجتمع يصطبغ بالصبغة العسكرية ، وهو المجتمع الروسي في فترة حكم القيصرية ، تلك الصبغة التي لا تترك مساحة للمشاعر والمواطف الإنسانية .

ولكن بطل تلك الرواية يبدو من الوهلة الأولى متمردا على النظام العسكري الذي كانت تعيش فيه الأسرة ، فوالده كان ضابطا وأحيل إلى المعاش برتبة ( ضابط أول ) ، وسجل الراوي وهو في رحم أمه رقيباً في الجيش ( وتأثر بالقول الروسي المأثور « حافظ على شرفك منذ الصبا » .

وتظهر في هذا الجو الصارم فتاة الرواية « ابنة الضابط » ، التي يبدو الراوي في وصفها الحسى والروحي ، مما يجعلها بحق غرضاً لتنازع وصراع فرسان تلك الرواية ، ويرتكب الراوي من أجل الوصول إليها حماقات تجعله في موضع التوبيخ من والديه ورؤسائه ، ويتعرض للكثير من الأزمات . ولكنه في النهاية يصل إلى ما يريد ..

والآن أترك لتستمتع بقراءة الرواية بنصها الكامل .

المؤسسة

العربية للدراسات

الدراسات والبحوث والدراسات

